الفصل الرابع

الأثر الدينى والفكرى لأهل السنة فى المجتمع المصرى

المبحث الأول: موقف أهل السنة من الصوفية:

المبحث الثانى: موقف أهل السنة من معتقد الفاطميين الإسماعيلى وفكرهم الفقهى:

المبحث الثالث: موقف أهل السنة من أهل الذمة:

المبحث الرابع: الأثر الفكرى لأهل السنة:

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول: موقف أهل السنة من الصوفية:

تعددت الأقوال بشأن اشتقاق التصوف فقيل إنه من **الصوفة**، لأن الصوفي مع الله كالصوفة المطروحة، لاستسلامه لله تعالى، وقيل بل هو من **الصِّفة**، إذ أن التصوف هو اتصاف بمحاسن الأخلاق والصفات، وترك المذموم منها [(1)]، وفى قول ثالث أنه من **الصُفَّة**، لأن صاحبه تابعٌ لأهل الصُفَّة الذين هم الرعيل الأول من رجال التصوف (وهم مجموعة من المساكين الفقراء كانوا يقيمون في المسجد النبوي الشريف ويعطيهم رسول الله من الصدقات والزكاة طعامهم ولباسهم) [(2)]، وقد تعقب ابن الجوزى هذا الرأى بقوله: " ونسبة الصوفى إلى أهل الصفة غلط لأنه لو كان كذلك لقيل: صفى " [(3)]، وفى قول رابع أنه من **الصف**، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله ; وتسابقهم في سائر الطاعات [(4)]، وذهب فريق خامس إلى أنه من **الصوف**، لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف الخشن للتقشف والاخشيشان[(5)]، وهناك رأى سادس يقول أنه من **الصفاء**، فلفظة "صوفي" على وزن "عوفي"، أي: عافاه الله فعوفي، قال أبو الفتح البستي:

وظنه البعض مشتقاً من الصوف تنازع الناس في الصوفي واختلفوا

صفا فصوفي حتى سُمي الصوفي ولست أمنح هذا الاسم غيرَ فتىً

وفى قول سابع أن التصوف نسبة إلى الصوفانة وهى بقلة رعناء قصيرة نسبوا إليها لاجتزائهم نبات الصحراء، وقد تعقب ابن الجوزى هذا الرأى بقوله: "وهذا أيضاً غلط لأنه لو نسبوا إليها لقيل: صوفانى[(6)]"، وذهب فريق ثامن إلى أنه منسوب إلى صوفة القفا وهى

(1) أنظر: عبدالقادر عيسى: حقائق عن التصوف، دار العرفان، 2001م، ص25.

(2) ابن الجوزى:تلبيس إبليس، تحقيق محمد على، مكتبة القرآن، القاهرة، 1409هـ/ 1989م، ص157.

(3) أنظر: تلبيس إبليس، ص157،158.

(4) أنظر: عبدالقادر عيسى: حقائق عن التصوف، ص25.

(5) ابن الجوزى: تلبيس إبليس، ص158 ; وانظر: ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، دار الكتب العلمية، بيروت، (2000)، ص 24

(6) أنظر: تلبيس إبليس، ص158.

الشعرات النابتة فى مؤخره كأن الصوفى عطف به إلى الحق وصرفه عن الخلق[1]، وذهب ابن الجوزي الحنبلى إلى أن الصوفية يُنسبون إلى صوفة واسمه الغوث بن مر أول من انفرد بخدمة الله عند بيته الحرام، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى[2]; وبمثل قوله ذهب ابن تيمية[3].

ويروق لنا أن نختم هذا النزاع حول التصوف من الناحية اللغوية بكلام أحد أرباب الزهد والتصوف وهو الإمام القشيرى (ت 465هـ) والذى كان معاصراً للدولة الفاطمية حيث قال: "ثم هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال: رجل صوفي، وللجماعة صوفية، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له: متصوف، وللجماعة متصوفة، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس أو اشتقاق.... ثم إن هذه الطائفة اشهر من أن يحتاج فى تعيينهم إلى قياس لفظ أو استحقاق اشتقاق[4].."

هذا عن الاشتقاق اللغوى لكلمة تصوف أو صوفية. أما فى الاصطلاح فيمكننا أن نجمل ما ورد بشأنه من تعريفات فى التالى:

أولا: ذهب الجنيد إلى أن التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني[5]. وقال أيضا: " التصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع[6]".

ثانيا: وذهب معروف الكرخى إلى أن التصوف: هو الأخذ بالحقائق والياس مما فى أيدى الخلائق[7].

ثالثا: وقال أبو الحسن الشاذلي :التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية[8]

---

[1] نفس المصدر والمكان.

[2] أنظر:تلبيس إبليس، ص156.

[3] نفس المصدر والمكان.

[4] أنظر: الرسالة القشيرية، دار الكتاب العربى، بيروت، ص126.

[5] نقلا عن مصطفى المدني: النصرة النبوية، ص22.

[6] نقلا عن القشيرى: الرسالة، ص127.

[7] نفس المصدر والمكان.

[8] نقلا عن: حامد صقر: نور التحقيق، ص93.

رابعا: وقال الشيخ زكريا الأنصاري :التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية.

خامسا: وقال ابن عجيبة :التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة[1].

أما عن ظهور التصوف فى مصر فقد ذكر الكندى في حوادث سنة المائتين أنه ظهر بالإسكندرية طائفة يسمَّوْن بالصوفية يأمرون بالمعروف[2]، وقد ذكرنا خبرهم بالفصل الأول من هذه الدراسة.

وممن بز من الصوفية فى القرن الثالث الهجرى أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، الشهير بذى النون المصرى (ت 245هـ/859م). ولد في أخميم بمصر سنة 179هـ /796م، وروى الحديث عن مالك بن أنس والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة، وانتقل إلى سورية والحجاز، وذكر السيوطى عن السلمى أن ذا النون المصرى أول من عرف التوحيد بالمعنى الصوفي وأنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع والمقامات والأحوال[3].

اتهمه معاصروه بالزندقة وحاولوا الإيقاع بينه وبين الخليفة المتوكل فوصفوه بأنه أحدث علمًا لم تتكلم به الصحابة أو لم يتكلم به السلف، فاستجلبه المتوكل إليه في بغداد سنة 215هـ/829م، ويقال أنه لما دخل عليه وعظه فبكى، فرده إلى مصر مكرمًا، وقيل لما سمع كلامه أولع به وأحبه وأكرمه حتى كان يقول: "إذا ذكر الصالحون فحيهلا بذى النون[4]".

وتوفي ذو النون في الجيزة ودفن في مقابر أهل المعافر[5]، وروي أن الطير الخضر أخذت ترفرف فوق جنازته حتى وصل إلى قبره[6].

---

(1) أنظر: معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص4.

(2) أنظر: الولاة والقضاة، ص161،162 ; محمد الصديق الغمارى: الانتصار لطريق الصوفية، ص17،18.

(3) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص324.

(4) ابن كثير: البداية والنهاية، 10/908 ; وانظر: السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص324.

(5) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، 8/394،393.

(6) ابن العماد: شذرات الذهب، 2 /108.

وإذا كان ذو النون المصرى هو أول من غرس بذور التصوف بمصر فقد شاركه في غرسها في القرن الثالث الهجري أيضًا صوفيان آخران لهما مكانتهما، وهما: أبو بكر الدقاق المصري، وأبو الحسن بن بنان الحمال (ت336هـ)، ثم استمرت حركة التصوف بمصر في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ومن أبرز رجالها أبو علي الروذباري (ت 332هـ)، وأبو الخير الأقطع التيناني (ت 343هـ)، وأبو القاسم الصامت (ت 427هـ).

ومن مشاهير الصوفية فى العصر الفاطمى الفقيه الكبير الزاهد نجم الدين أبو البركات محمد بن موفق بن سعيد الخبوشاني الشافعي الصوفي[1] والذى كان له دور كبير فى إسقاط الدولة الفاطمية.تفقه على محمد بن يحيى وبرع. قال ابن خلكان: "فكان يستحضر كتابه (المحيط) وهو ستة عشر مجلدا[2] "، وقال المنذري: ولد سنة عشر وخمس مائة وحدث عن: هبة الرحمان ابن القشيري، وقدم مصر فأقام بمسجد مدة ثم بتربة الشافعي وتبتل لإنشائها ودرس بها وأفتى وصنف[3]، ومنهم أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى الظاهرى المقرىء الزاهد(ت 562هـ)[4].

ونظراً لانتشار طقوس الصوفية بمصر فى العصر الفاطمى، فقد حرص أهل السنة على توضيح رأيهم تجاه ما يقوم به الصوفية من اجتماع على الذكر وتمايل ورقص وخلافه، ومن ثم رأينا وجهين لفقهاء السنة فى عصر الفاطميين من الصوفية:

الوجه الأول: يرى تحريم ما يقوم به الصوفية من طقوس، وتمثل فى فتوى الطوطوشى الذى ذاع أمره بالإسكندرية، ونشرت فتواه بخصوص هذا الشأن والتى جاءت كرد على سؤال رفع إليه هذا نصه:

---

(1) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، تحقيق مجموعة من الباحثين، الرسالة العالمية، 414/8 ; المنذري: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، مطبعة عيسى البابى الحلبى، القاهرة، ط1، 1395هـ/1975م، الترجمة 154; ابن خلكان: وفيات الأعيان، 239/4; الصفدي: الوافى، 99/5; السبكي: الطبقات، 14/7 ; عبدالباقى السيد: تاريخ أهل الظاهر، ص500; وخبوشان من قرى نيسابور.

(2) أنظر: وفيات الأعيان، 239/4.

(3) أنظر: التكملة، ترجمة 154.

(4) أنظر:الذهبى، سير أعلام النبلاء، 454/20 ; ونفس المؤلف، العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد السعيد، دار الكتب العلمية، 1405هـ/1985م، ج3 أحداث سنة سبع وثمانين وخمس مائة ; على صافى حسين: ابن الكيزانى الشاعر الصوفى المصرى، دار المعارف، القاهرة، ص42-48.

ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأُعلِم أنه اجتمع جماعة من رجال، فيكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيءٍ من الأَديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيّاً عليه، ويحضرون شيئاً يأكلونه. هل الحضور معهم جائز أم لا؟

فأجاب الطوطوشى بقوله: يرحمك الله، مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله، وسنة رسوله، وأما الرقص والتواجد، فأَوّل مَنْ أَحثه أصحاب السامريّ، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار, قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون فهو دين الكفار, وعبّاد العجل.

وأما القضيب فأوّل مَن اتخذه الزَّنادقة، ليشغلوا به المسلمين عن كتابِ الله تعالى. وإنما كان يجلس النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مع أصحابه، كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار، فينبغي للسلطان ونوّابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحلّ لأَحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين، وبالله التوفيق" ([1]).

ونظرا لانتشار تقديس بعض الأشجار ومخافة الطرطوشى على المصريين من الوقوع فى الشرك بركونهم إلى هذه الأشجار، وترك الاستعانة بالله تعالى وجدناه لما رفع إليه الأمر أفتى بما نصه: انظروا -رحمكم الله- أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمون من شأنها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، وينوطون بها المسامير والخرق; فهي ذات أنواط; فاقطعوها.

كذلك انتشرت بعض العادات التى كانت تصدر من المصريين وغيرهم حال زيارة قبر النبى صى الله عليه وسلم، فكانوا يتمسحون بالقبر وبالمنبر، وهو الأمر الذى عارضه الطرطوشى فى إطار رفضه لكل ما يقرب الناس إلى ما اصطلح عليه بالتصوف المغشوش

[1] نقلا عن القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، 11/238،237.

قريب الصلة بالتشيع، ومن ثم رأيناه يوضح للناس رأيه صراحة فقال: ولا يُتمسّح بقبر النبيّ ﷺ، ولا يَمسح كذلك المنبر، ولكن يدنو من المنبر، فيُسلّم على النبيّ ﷺ، ثم يدعو مستقبلاً القبلة; يُولّيه ظهره. (وقيل: لا يوليه ظهره)، ويصلّي ركعتين قبل السلام عليه، وقيل: واسعٌ أن يسلم عليه قبل أن يركع.

كما كان لانتشار كتاب إحياء علوم الدين بمصر وغيرها من ساشر البلدان أثر فى توجيه الطرطوشى النقد الشديد والعنيف له باعتباره كتاب يؤصل للتصوف، وصاحبه من أرباب الصوفية ومما جاء فى كلام الطرطوشى ومعظمه مجانب للصواب: "فلما عمل كتابه سماه "إحياء علوم الدين" عمد يتكلم في علوم الأحوال و مراقي الصوفية، و كان غير دري بها و لا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه فلا في علماء المسلمين قر، و لا في أحوال الزاهدين استقر، شحن كتابه بالكذب على رسول الله ﷺ، فلا أعلم كتاباً على بسيط الأرض في مبلغ علمي أكثر كذبا على رسول الله ﷺ منه، سبكه بمذاهب الفلاسفة ومعاني "رسائل إخوان الصفاء" وهم قوم يرون النبوة اكتساباً، وليس النبي في زعمهم أكثر من شخص فاضل تخلق بمحاسن الأخلاق[1])

الوجه الثانى: يرى أن الصوفيه أهل فضل وصلاح، ومن ثم رأينا أصحاب هذا الاتجاه يعارضون رأى الطرطوشى السابق وعمدوا إلى نشر أقوال أئمة المذاهب الفقهية السنية والتى تفيد صحة ما عليه الصوفية ومنها:

أولاً: قول الإمام مالك بن أنس: "من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق[2]".

ثانياً: وقال محمد بن إدريس الشافعي :

فقيهاً وصوفياً فكن ليس واحد فإنّي وحق الله إيّاك أنصح

فذلك قاس لم يذق قلبه تُقى وهذا جهول، كيف ذو الجهل يصلحُ؟[3].

---

[1] الذهبى: سير أعلام النبلاء، 334/19.

[2] نقلا عن حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي، 195/3; مُلا علي القاري: شرح عين العلم وزين الحلم، 33/1.

[3] أنظر: ديوان الإمام الشافعي، ص 42-43.

وكان يقول رحمه الله: "حُبب إليّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف[1]"; ويتأكد تعظيم واحترام الإمام الشافعي للصوفية من خلال القصة التالية: "مر طائفة من المتصوفة على أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه في صحن المسجد، فقال الشافعي رضي الله عنه: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما على وجه الأرض في هذه الساعة قوم أكرم على الله عز وجل منهم[2]. كما أنه – رحمه الله – استفاد كثيرا من الصوفية، وكان يقول: "صحبت الصوفية فلم استفد منهم سوى حرفين، وفي رواية سوى ثلاث كلمات قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وقولهم :العدم عصمة[3].

ثالثاً: وأما الإمام أحمد بن حنبل فكان يُعظم الصوفية ويرفع من قدرهم; لأنهم أئمة هدى وصلاح وخير لهذه الأمة. فقد نقل العلامة محمد السفاريني الحنبلي، رحمه الله، عن إبراهيم بن عبد الله القلانسي، رحمه الله تعالى; أن الإمام أحمد، قال عن الصوفية: "لا أعلم أقواما أفضل منهم. قيل إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة ([4])، وكان الإمام أحمد قبل ذلك يحذر ابنه عبد الله من صحبتهم فلما سبر مذهبهم، وعرف أحوالهم، ومنزلتهم أمره بملازمتهم والاقتداء بهم، وفيما يلي قصته مع ابنه: "كان الإمام أحمد قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله: "يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه، فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي، وعرف أحوال القوم، أصبح يقول لولده: يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة[5] بل أكثر من هذا فالإمام أحمد يُعد في نظر الكثيرين، من كبار الصوفية، لأنه رحمه الله يعتبر من

---

[1] نقلا عن العجلونى: كشف الخفا ومزيل الإلتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، مكتبة القدسى،1/ 341.

[2] أنظر: التصوف في تراث ابن تيمية، ص 39.

[3] نقلا عن السيوطى: تأييد الحقيقة العلية، ص 13.

[4] نقلا عن: غذاء اللباب شرح منظومة الآداب، 1/ 120.

[5] أمين الكردي: تنوير القلوب، ص 434.

الأوائل الذين تكلموا بعلوم الصوفية كما صرح بذلك ابن تيمية في مجموع فتاويه بقوله: "وقد نُقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ، كالإمام أحمد بن حنبل، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما[1]، وهذا ما يفسر إدراج الصوفية الإمام أحمد ضمن تراجمهم وطبقاتهم مثل: "حلية الأولياء" لأبي نعيم، و"الطبقات الكبرى" للشعراني، و"الكواكب الدرية" للمناوي، و"التذكرة" لفريد الدين العطار.

رابعاً: وقال أبو حامد الغزالي الذى انتشرت أقواله وكتبه بمصرعن تصوفه وطريق الوصول إليه: "ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به: إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطريق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به" ثم يشرح ويوضح فيقول: "وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟ وهذا آخرها، بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها، وهي على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك إلا كالدهليز للسالك إليه[2].

---

[1] ابن تيمية: مجموع الفتاوى، 5/11.

[2] أنظر: المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال، ص 378

المبحث الثانى: موقف أهل السنة من معتقد الفاطميين الإسماعيلى وفكرهم الفقهى

بداية لابد من الوقوف على نشأة الإسماعيلية، والتى جاءت من جراء افتراق الشيعة بعد موت الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر إلى فرقتين: **فرقة:** ساقت الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم, وهؤلاء هم الشيعة الاثنى عشرية. **وفرقة:** نفت عنه الإمامة, وقالت: إن الإمام بعد جعفر, هو ابنه إسماعيل, وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية[1].

قال عبد القاهر البغدادي في شأن الإسماعيلية: «وهؤلاء ساقوا الإمامة على جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل»[2]، وقال الشهرستاني: «الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الإثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر... ولم يتزوج الصادق رضي الله عنه على أمه –أم إسماعيل- بواحدة من النساء, ولا تسرى بجارية كسنة رسول الله في حق خديجة رضي الله عنها, وكسنة علي في حق فاطمة رضي الله عنها»[3].

فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة, وتنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق, ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب «الإسماعيلية» منها: الباطنية, وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً, ولكل تنزيل تأويلاً, ويطلق عليهم القرامطة, وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق, ويطلق عليهم في خراسان «التعليمية والملحدة», وهم لا يحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء, وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم»[4]، وقد ظهَرت بذور هذه الطائفة في عهد المأمون العباسي على يد جماعة كان على رأسهم ميمون القدَّاح; حيث اجتمَع مع نفرٍ من أصحابه، ووضَعوا مذهب الباطنية، وأسَّسوا قواعده.

ويقوم معتقد الإسماعيلية فى الله على تعدد الآلهة حيث أناطوا خلق الخلق وإدارة الكون وتدبير أمر العالم علويه وسفليه على العقلين الأول أو الثاني أو السابق والتالي مع الإلحاد في

---

(1) أنظر: أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية، ص93-97.

(2) أنظر: الفرق بين الفرق، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ص 62.

(3) أنظر: الملل والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت،1/191.

(4) المصدر السابق،1/192.

أسماء الله وصفاته بجحدها ونفيها عن الله بالكلية وفي باب النبوات اعتبروا النبوة رتبة من مراتب دعوتهم يتمكن المستجيب لهذه الدعوة من الوصول إليها ومن جراء ذلك أصبحت النبوة مقاما يحق إدعاءه لسائر الخلق.كما أنهم لم يؤمنوا بختم النبوة وانقطاع الوحي مع إنكارهم لمعجزات الرسل والأنبياء وزعمهم بأفضلية الولاية والوصاية على النبوة والرسالة.

وفي باب الأخرويات يبطلون الاعتقاد بالقيامة والمعاد على الوجه المتفق عليه بين علماء الإسلام حيث يعتقد بأن القيامة هي قيام قائمهم وأن الثواب والعقاب إنما هو في الدنيا.

ومن معتقدات الإسماعيلية التي عُرِفوا بها:

1- لا يُقيمون الصلاة في مساجد المسلمين، بل يصلونها في مساجد داخل بيوتهم، ويَمنعون غيرهم من دخولها، ويصلُّون الظهر والعصر بأذانٍ واحدٍ، والمغرب والعشاء كذلك، ويصلُّونها فُرادى غالبًا، وفي سرعة واضحة; حيث يرون أن الصلاة لا تَصِحُّ إلاَّ خلف أئمَّتهم، أو من يُجيزه أئمَّتهم بعد التأكُّد من مُعتقده، ولا يصلون الجمعة، بل يصلونها ظهرًا، كسائر أيام الأسبوع، بحجَّة أنه لا يوجد إمام عادلٌ يصلون وراءه[1].

2- أمَّا الزكاة، فيدفعونها إلى مشايخهم، ويرون أنَّ هذا معنى الزكاة في الباطن، ولا يعتدُّون بالزكاة التي تؤخَذ من قِبَل وُلاة الأمور، ويرون أنها الزكاة في الظاهر، وقد خالفوا بذلك أمرَ الله تعالى بدَفْع الزكاة للفقراء، ومستحقي الزكاة دون الأغنياء.

3- أمَّا الصيام، فهم يصومون رمضان ثلاثين يومًا باستمرار، ولا عِبرة برؤية الهلال ولابموافقة المسلمين، فهم يصومون على الحساب الفلكي[2].

4- وفي الحج لا يوافقون المسلمين فيه، بل يَسبقونهم بيومٍ، أو يتأخَّرون عنهم بيوم على حسابهم الذي يَسيرون عليه.

5- ومما عُرِفوا به تقديس مشايخهم، ورَفْع مقاماتهم; حتى إن منهم مَن يرى أنَّ أئمَّتهم آلهة، أو أنهم يوحَى إليهم، وأنهم يعلمون الغيب، وهم يسجدون لهم، ويَطلبون منهم المَغفرة، ورُبَّما أصدَروا لهم صكوكَ غفرانٍ، وأقطَعوهم من أراضي الجنة كما يَزعمون. بل جعلوا

---

[1] ابن قطب الدين الهندى: الترجمة العبقرية، مخطوط بدار الكتب المصرية، 3608 تاريخ.

[2] أنظر: سيرة المؤيد فى الدين، تحقيق محمد كامل حسين، دار المعارف، القاهرة، ص5،6.

الإمام وجه الله ويده ونوره، ونور الله لا يزال ينتقل من إمام لإمام والأئمة سبب وجود المخلوقات وغير ذلك من الخرافات[1].

6- يرون أنه لا سَمْع ولا طاعة، إلاَّ لأئمَّتهم المعصومين، وما عداهم، فليسوا ولاة أمرٍ تجب طاعتهم مهما كانت صفتهم، ولعلهم لم يدينوا بعصمة الأنبياء إلا ليتاح لهم القول بعصمة أئمتهم[2].

7- لا يرون شيئًا محرَّمًا، بل الحلال ما حلَّ بأيديهم، ولا حُرمة لدم مسلم ما لَم يكن منتسبًا لمعتقدهم الباطل.

8- يرون أنَّ القرآن الكريم محرَّفٌ; لذا لا يوجد منهم أحدٌ يَحفظ القرآن الكريم، ولا جزءً واحداً منه، أو يُتقن تلاوته; لا من علمائهم، ولا من عوامِّهم.

9- يقولون بطهارة الخمر، ولا يجيزون الزكاة فى أموال التجارة، ويدفعون خمس إيرادهم للإمام، ولا يوقعون الطلاق إلا بشاهدين كالزواج، ويقدمون القرابة على العصبة فى الميراث، ويقدمون البنت على العم، ولا يورثون الجد عند وجود ابن الإبن[3].

10-يقومون بكَسْر اليد اليسرى لميِّتهم; حتى لا يأخذ كتابه بالشمال كما يَزعمون، وقد جَهِلوا أن الذي يُعيد الجسد كما كان قادرٌ على أن يجعل اليد سويَّة، ويَعتقدون أنَّ الأرواح بعد الموت تتناسَخ; أي: ترجع بعد موت الجسد، فتارة تعود الرُّوح إلى جسد خبيثٍ، وتارة تعود إلى جسد طيِّب، كما يَكثر فيهم تعاطي السِّحر والشعوذة.

11-كما يَشتهرون بمخالفة السُّنة في كثيرٍ من الخِصال، فهم جميعًا يُطيلون ثيابهم كثيرًا; عالمُهم وجاهلُهم، بل يَعيبون على أهل السُّنة تَرْكَ الإسبال في الثياب، كما يَكثر فيهم الوسواس في الوضوء والصلوات، وربما صلُّوا صلوات كثيرة من باب الاحتياط عن صلاة مَنسيَّة ونحوها، مع أنَّ السُّنة لَم تَرِد بذلك.

---

[1] أنظر: أحمد شلبى: مرجع سابق، ص410.

[2] محمد كامل حسين: فى أدب مصر الفاطمية، ص7.

[3] القاضى النعمان: كتاب الهمة، ص66،67 ; وانظر: ابن قطب الدين الهندى: الترجمة العبقرية، 370أ، 381، 385 ب، 390أ.

12-يعتقدون أن لكل نبى وصياً وأن الله هو الذى يختار الوصى لنبيه، وأن علياً هو وصى النبى محمد والقائم بأمر الباطن، وأن الله أعلم محمدا بذلك، وأنه هم أن يطلع أصحابه بذلك، ولكنه أرجأ ذلك لأن عليا كان أحدث الصحابة سنا[1].

13-أن الله بعث جبريل بالوحي إلى علي عليه السلام فغلط جبرئيل وأنزل الوحي على محمد ﷺ[2].

14-أن القرآن الكريم ناقص وأن القرآن الحقيقي صعد به إلى السماء حينما أرتد الصحابة رضوان الله عليهم[3].

15-أن الرسول ﷺ بلغ جزءً من الشريعة وجعل الباقي عند علي بن أبي طالب ليبلغه[4].

16-أن أئمتهم هم الواسطة بين الله وبين خلقه، ويصفون أئمتهم بصفات الله تعالى ويسمونهم بأسمائه[5]، و أن أئمتهم يملكون الضمان لشيعتهم بدخول الجنة[6]، وأن الأئمة لا يتكلمون إلا بالوحي وهذا من ضروريات دين الإمامية[7]، وأن حساب جميع الخلق يوم القيامة إلى الأئمة[8]، وأن زيارة قبور وأضرحة الأئمة والأولياء فريضة من الفرائض ويكفر تاركها[9].

---

(1) القاضى النعمان: أساس التأويل الباطن، نقلا عن أحمد شلبى: التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى، ص404،405.

(2) أنظر: المرتضى: المنية والأمل في شرح الملل والنحل، ص 30

(3) أنظر: الملطى: التنبية والرد، تحقيق محمد زينهم، القاهرة - مكتبة مدبولى 1413هـ، ص 25.

(4) أنظر: تعليق شهاب الدين النجفي على إحقاق الحق للتستري،2/ 288-289.

(5) أنظر: الكلينى: الكافى، تحقيق على أكبر الغفارى، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط5، 103/1 ; المجلسى: بحار الأنوار، دار إحياء الكتب الإسلامية،23 / 99

(6) أنظر: رجال الكشي، تحقيق جواد القيومي الأصفهانى، مؤسسة النشر الاسلامي بقم، ط1، 1427هـ، 5 / 490 - 491.

(7) أنظر: بحار الأنوار، 155/11.

(8) أنظر: العاملى: الفصول المهمة في أصول الأئمة،٤٤٦/١ ; الكراجكي الطرابلسى: كنز جامع الفوائد، تحقيق عبدالله نعمة، دار الأضواء، بيروت، ط1، 1985م، 1/ 250.

(9) ابن قولوية القمى: كامل الزيارات، ص١٨٣.

17-أن الحج إلى قبور الأئمة أهم عندهم من الحج إلى الكعبة المشرفة[1].

18- وأن من يقوم بزيارة قبر علي بن أبي طالب يكتب الله له بكل خطوة حجة مقبولة وعمرة مبرورة ويكتب الله له أجر مائة الف شهيد ويغفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ويبعث من الآمنين ويهون عليه الحساب وتستقبله الملائكة[2]، وأن من زار قبر الحسين كمن زار الله في عرشه[3].

19- أن تراب وطين قبر الحسين شفاء من كل داء[4].

20- أنه لا فرق بين الله تعالى وبين أئمتهم[5].

21- أن الكواكب والنجوم لها تأثير في السعادة والشقاوة وفي دخول الجنة والنار[6].

22- أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعلم الغيب ويقولون أنه يقول وحاشاه من ذلك: أنا رب الأرض الذي يسكن الأرض به، وأنه يتصرف في الدنيا والأخرة وأنه هو من يحدث الصواعق والرعد والبرق، وأنه يحيي الموتى[7].

23- أن الله تعالى لا ينزل إلى السماء الدنيا وحكموا على من أثبت هذه الصفة بالكفر[8].

24- أنه ولا بد مع شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله أن تشهد أن عليا ولي الله تعالى فيرددونها في آذانهم وبعد صلواتهم ويلقنوها موتاهم[9]، وأن من يقوم بزيارة قبر علي بن أبي طالب يكتب الله له بكل خطوة حجة مقبولة وعمرة مبرورة ويكتب

---

(1) أنظر: ابن بابويه القمى: ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، دار طليعة نور، ط5، ص 121-122

(2) أنظر: العاملى: وسائل الشيعة،١٠/ ٤٥٨ ; الطوسى: تهذيب الأحكام، ظبطه وصححه محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط1، 1992م،٦/١٣٠٦.

(3) أنظر: المفيد: المزار مناسك المزار، ص51.

(4) أنظر: ابن بابويه القمى: الأمالي، 93/ 318.

(5) أنظر: عبدالله شبر: مصابيح الأنوار في حل مشكلات الأخبار،2/ 397.

(6) أنظر: الكلينى: الكافي،8/ 2103.

(7) أنظر: العاملى: مرآة الأنوار، ص59 ; الكلينى: الكافى، 1/308، 347.

(8) أنظر: الكلينى: الكافى، 1/91،90.

(9) أنظر: الكلينى: الكافى، 3/82.

الله له أجر مائة الف شهيد ويغفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ويبعث من الآمنين ويهون عليه الحساب وتستقبله الملائكة[1].

25- إذا تشاجر الملائكة فإن جبرئيل عليه السلام ينزل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيعرج به إلى السماء لكي يصلح بينهم[2].

26- أن من لعن أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية بن أبي سفيان وعائشة وحفصة رضي الله عنهم بعد كل صلاة فقد تقرب إلى الله بأفضل القربات[3]، وأن أبا بكر رضي الله عنه خدم أكثر عمره للأوثان عابدآ للأصنام وأن إيمانه كإيمان اليهود والنصارى وأنه كان يصلي خلف الرسول ﷺ والصنم معلق في عنقه ويسجد له، وأن عمر بن الخطاب كان مخنثآ وبه داء لا يداويه إلا ماء الرجال[4]، وأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما يظهران لهم في كل موسم حج حتى يرمونهما بالحجارة أثناء رمي الجمار، وأن كفر عمر بن الخطاب رضي الله مساو لكفر إبليس إن لم يكن أشد منه بل قالوا: إن إبليس يتعجب من شدة مضاعفة العذاب على عمر رضي الله عنه فيقول إبليس: من هذا الذي أضعف الله له العذاب وأنا أغويت هذا الخلق جميعاً[5]، وأنه لامجال لعاقل أن يشك في كفر عمر فلعنة الله ورسوله عليه وعلى كل من اعتبره مسلمآ وعلى كل من يكف عن لعنه[6]، وأن أبا بكر وعمر كانا كافرين والذي يحبهما فهو كافر أيضآ[7]، وأن عثمان بن عفان كان في زمن النبي ﷺ ممن أظهر الإسلام وأبطن النفاق[8]، وأن من لم

---

(1) أنظر: العاملى: وسائل الشيعة، تحقيق عبدالرحيم الشيرازى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط5، 1403هـ/1983م، ١٠/ ٤٥٨ ; الطوسى: تهذيب الأحكام، ٦/ ١٣٠٦.

(2) المفيد: الاختصاص، ص٢١٣.

(3) الكلينى: الكافى، 224/3.

(4) أنظر: بحار الأنوار، 25 / 172 ; الحلي الآملي: الكشكول، ص 104 ; الجزائرى: الأنوار النعمانية،، تعليق محمد على الطبطبائى، دار القارىء، دار الكوفة 2008م، 1 / 53، 63

(5) انظر: تفسير العياشي، تصحيح سيد هاشم المحلاتى، بيروت - مؤسسة الأعلمى للمطبوعات د.ت، ٢/ ٢٤٠.

(6) المجلسي: جلاء العيون، ص٤٥.

(7) المجلسي: حق اليقين ص٥٢٢.

(8) الجزائرى: الأنوار النعمانية، ١/ ٨١.

يجد في قلبه عداوة لعثمان بن عفان ولم يستحل عرضه ولم يعتقد كفره فهو عدو لله ورسوله كافر بما أنزل الله[1]، وأن منزل الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان في جب في قعر جهنم في تابوت مقفل على ذلك الجب صخرة إذا أراد الله أن يسعر نار جهنم كشف تلك الصخرة عن ذلك الجب فأستعاذت جهنم من وهج ذلك الجب[2]، وأن من تبرأ من الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة[3]، ويعتقد شيوخ الشيعة كفر عائشة بنت أبي بكر الصديق وكفر حفصة بنت عمر رضي الله عنهم أجمعين[4]، وأن أحد أبواب النار السبعة لعائشة رضي الله عنها[5]، وأنها رضي الله عنها زانية !!! وأن مهديهم المنتظر سوف يحييها ويقيم عليها الحد[6]، وأن النبي ﷺ لا بد أن يدخل فرجه النار لإنه وطئ بعض المشركات (يقصدون عائشة وحفصة)[7].

27- أن إيمان المؤمن لا يكمل حتى يتمتع والتمتع عندهم بأن يعرض الرجل على المرأة أن يتمتع بها فتوافق دون شهود أو ولي، ولقد قالوا أن من تمتع بامرأة مؤمنة فكأنما زار الكعبة سبعين مرة[8].

28- أن الملائكة خلقهم الله من نور أئمتهم وإن من وظائف الملائكة البكاء على قبر الحسين وأنه قد وكل بقبر الحسين أربعة الأف ملك يبكونه إلى يوم القيامة وأن كل الملائكة يسألون الله أن يأذن لهم في زيارة قبر الحسين ففوج ينزل وفوج يعرج، وأن أول ما يسأل عنه الميت في قبره هو حب آل البيت[9].

---

(1) علي بن هلال الكركي: نفحات اللأهوت في لعن الجبت والطاغوت، فقرة 57.

(2) الطبرسي: الاحتجاج،٨٦/١.

(3) الكلينى:الكافي،٧٥١/٢.

(4) أنظر: أنظر: تفسير القمي، ص 597 سورة غافر.

(5) تفسير العياشي،٣٦٢/٢.

(6) ابن بابويه القمى: علل الشرائع، تحقيق محمد صادق، النجف – منشورات المكتبة الحيدرية 1385هـ/1966م،٥٦٥/٢ ; المجلسى: حق اليقين، ص ٣٤٧

(7) الموسوي: كشف الأسرار وتبرئة الأئمة الأطهار، ص ٢٤.

(8) الطوسى: مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ص252.

(9) أنظر: بحار الأنوار، 79/27.

29- وأن الناس ارتدوا كلهم بعد وفاة النبي ﷺ إلا أربعة: سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وهذا مما لا إشكال فيه[1].

30- وأن التقية هي كتمان الحق وستر الاعتقاد فيه وكتمان المخالفين وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين أو الدنيا وقالوا لا إيمان لمن لا تقية له[2]، وأن من ترك التقية كمن ترك الصلاة وتركها من الموبقات. بل قالوا إن تارك التقية كافر خارج عن دين الله[3].

31- وأنهم يعتقدون فى الرجعة وهي رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة في صورهم التي كانوا عليها[4]، و عندما يرجع كثير من الأموات إلى الدنيا يكون من ضمن الذين رجعوا الأنبياء والمرسلين لكي يصبحوا جنوداً ومرسلين يقاتلون تحت راية علي بن أبي طالب[5].

32- وأن مهديهم المنتظر قد دخل سرداباً في بيت والده في سامراء بالعراق وكان عمره خمس سنوات[6]، وأنه يحيي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ثم يصلبهما على جذع نخلة ويقتلهما كل يوم الف قتله[7]، وأنه يقتل الحجاج بين الصفا والمروة ويهدم المسجد الحرام والمسجد النبوي والحجرة النبوية ويحكم بحكم آل داوود[8].

33- أن صلاة الجمعة لا تجب عليهم حتى يخرج مهديهم المزعوم من سردابه ليصلي بهم[9].

34- وأن الجهاد قبل خروج المهدي المنتظر حرام كحرمة الميتة والدم ولحم الخنزير[10].

---

(1) الجزائري: الأنوار النعمانية،١/ ٨١.

(2) الكلينى: الكافي،2 / 573.

(3) ابن بابويه القمى: من لا يحضره الفقيه،2 / 313.

(4) المفيد: أوائل المقالات، ص ٤٦.

(5) أنظر: بحار الأنوار،٥٣/ ٤١.

(6) القمى: المقالات والفرق، ص 102.

(7) حسن بن سليمان الحلى: مختصر بصائر الدرجات، ص 187 / 188.

(8) أنظر: بحار الأنوار،53/ 40; الطوسى: الغيبة، تحقيق عباد الله الطهراني، علي أحمد ناصح، ط1، 1411هـ، ص 306 ; الكلينى: الكافي،1 /300.

(9) محمد جواد العاملي: مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة،2/ 69.

(10) الكلينى: الكافي،5 / 787.

35- وأن الشيعة لابد أن يستأصلوا شأفة العرب ويقتلونهم قتلاً حيث ذكروا كذباً أن الإمام جعفر الصادق قال: " مابقي بيننا وبين العرب إلا الذبح وأومأ بيده إلى الحلق[1]".

36- وأن الشيعي خلقه الله من طينة خاصة والسني خلقه الله من طينة أخرى وجرى المزج بين الطينتين فما في الشيعي من معاصي وجرائم هو من تأثره بطينة السني وما في السني من صلاة وصيام وصلاح وأمانة هو من تأثرة بطينة الشيعي فإذا كان يوم القيامة فإن سيئات وموبقات الشيعة توضع على أهل السنة وحسنات أهل السنة تعطى للشيعة[2].

37- وأنهم إذا صلوا على جنائز أهل السنة في الحرمين الشريفين فصلاتهم من أجل الدعاء على أموات أهل السنة حيث يقولون فى التكبيرة الرابعة: اللّٰهم اخز عبدك وابن عبدك هذا، اللّٰهم أصله نارك، اللّٰهم أذقه أليم عقابك وشديد عقوبتك، وأورده نارآ، وأملا جوفه نارآ، وضيق عليه لحده، فإنه كان معادياً لأوليائك، وموالياً لأعدائك، اللّٰهم لا تخفف عنه العذاب، وأصبب عليه العذاب صبآ، فإذا رفع جنازته فقل اللّٰهم لا ترفعه ولا تزكه[3].

38- وأن أهل السنة والجماعة هم أهل النار وأنهم كفار أنجاس ولا تجور الصلاة عليهم ولا تحل ذبائحهم وإنهم أولاد زنا وأنهم قردة وخنازير ويجب قتالهم واغتيالهم ويجب سرقة اموالهم والأختلاف معهم بل جعلوا لعن أهل السنة من أفضل العبادات[4].

وتجدر الإشارة إلى أن فقهاء السنة عارضوا هذا المعتقد وعمدوا إلى نشر أقوال كبار الفقهاء السنة الذين خبروا أمر الإسماعيلية، ومن هؤلاء عبدالقاهر البغدادى (ت 429 هـ)

---

(1) النعماني: الغيبه، ص ٢٤١.

(2) أنظر: علل الشرائع،٤٧٨/٢.

(3) أنظر: الكلينى: الكافي،١٢٢/٣ ; ابن بابويه القمي: فقه الرضا، ص ١٧٨.

(4) أنظر: بحار الأنوار، 8 / 368-370 ;الأنوار النعمانية،2/ 306 ; الكلينى: الكافي،8 / 2109 ; علل الشرائع،2 /585،584 ; وسائل الشيعة،12 / 437

الذى ذكر: بيان الفرق التي انتسبت إلى الإسلام وليست منه ثم ذكر من هذه الفرق الباطنية وقال إن ضررها على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس بل أعظم مضرة من الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان لأن الذين ضلوا لا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال في وقت ظهوره لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها على أربعين يوما وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر... إلى أن قال :الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع ثم ذكر أدلة كثيرة نقلها من رسائلهم وكتبهم تدل على أنهم دهرية مجوس زنادقة[1]، وفي آخر الباب قال: "وقد بينا خروج فرق الباطنية والإسماعيلية كبرى فرقهم عن جميع فرق الإسلام بما فيه كفاية والحمد لله على ذلك".

وفي كتابه (أصول الدين) ذكر أن طائفة الباطنية خارجة عن فرق الأهواء وداخلة في فرق الكفر الصريح لأنها لم تتمسك بشيء من أحكام الإسلام في أصوله ولا في فروعه وأن دعاتهم خالفوا المسلمين في التوحيد والنبوات وفي تأويل الآثار والآيات وأنهم كانوا دعاة المجوس بالتمويه إلى دين الثنوية.

وبعد أن يستعرض عقائدهم يقول: واختلف أصحابنا في حكمهم فمنهم من قال هم مجوس وأجاز أخذ الجزية منهم وحرم ذبائحهم ونكاحهم ومنهم من قال حكمهم حكم المرتدين إن تابوا وإلا قتلوا وهذا هو الصحيح عندنا ثم ساق البغدادي بعد ذلك فتوى الإمام مالك في الباطني والزنديق قال عنهما إن جاءا تائبين ابتداء قبلنا التوبة منهما وإن أظهرا التوبة بعد العثور عليهما لم تقبل التوبة منهما وأن هذا هو الأحوط فيهم.

ومن الأئمة الكبار الذين راجت كتبهم بالمشرق عامة ومصر خاصة فى القرن الخامس الهجرى الإمام ابن حزم الظاهرى (ت 456هـ) الذى تحدث عن دار الإسلام ودار الحرب واعتبر أن الأراضي التي حكمها بعض الفرق الباطنية تعتبر دار كفر وذلك لصريح كفرهم

[1] الفرق بين الفرق، ص 382.

وذلك كالقرامطة مثلا وهم من فرق الإسماعيلية وأما ديار العبيديين لظهور الإسلام فيها فإنها وإن حكمها العبيديون تعتبر دار إسلام وإن كان حكامها في حقيقة أمرهم كفارا يقول ابن حزم عن ذلك: " إن من سكن في طاعة أهل الكفر من الغالية كالعبيديين ومن جرى مجراهم لا يعتبر كافرا لأن أرض مصر والقيروان وغيرهما الإسلام فيها هو الظاهر وولائهم على كل ذلك لا يجاهرون بالبراءة من الإسلام بل إلى الإسلام ينتمون وإن كانوا في حقيقة أمرهم كفارا وأما من سكن في أرض القرامطة مختارا فكافر بلا شك لأنهم معلنون بالكفر وترك الإسلام[1]"، وفي موضع آخر يقول عن الإسماعيلية أنها طائفة مجاهرة بترك الإسلام جملة وقائلة بالمجوسية المحضة[2]..

كذلك انتشرت أقوال الإمام أبى حامد الغزالى (ت505هـ) بشأن الإسماعيلية فى مصر حيث قال: إن مذهب الباطنية – والإسماعيلية فرقة منها – مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض ثم يضيف إلى أنهم يوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ويقرونهم عليها، وقال أيضا «والذي قدمناه في جملة مذهبهم يقتضي –لا محالة– أن يكون النقل عنهم مختلفًا مضطربًا, فإنهم لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد, بل غرضهم الاستتباع والاحتيال, فلذلك تختلف كلماتهم ويتفاوت نقل المذهب عنهم[3]».

لم يكتف أهل السنة بنشر أقوال من طعن فى الإسماعيلية من أئمة أهل السنة. بل وجدناهم يشاركون فى الجدل والمناظرة التى كانت تقع تحت رعاية أئمة الإسماعيلية، كالمجلس الذى كان يعقده يعقوب بن كلس فى بيته يوم الثلاثاء من كل أسبوع، ويحضره جماعة من فقهاء أهل السنة وغيرهم من مؤيدى المذهب الإسماعيلى، وتجرى المناظرة والجدل بينهم حول أى المعتقدين أصح السنى أم الإسماعيلى[4].

وتجدر الإشارة إلى أن أهل السنة فى مصر استفادوا من جهود المغاربة فى مواجهة الفكر الإسماعيلى الفاطمى، ومن ثم رأيناهم يعمدون إلى أبرز مناظرات المغاربة من الفاطميين

---

[1] أنظر: الفصل فى الملل والأهواء والنحل.

[2] نفس المصدر، 372/1.

((3)) فضائح الباطنية، ص 38.

[4] أحمد كامل: مصر الإسلامية، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ت، ص155.

وينشرونها بين الناس كسلاح يواجهوا به الفكر الإسماعيلى، ويدافعون به عن دينهم، ومن أبرز هذه المناظرات مناظرات الإمام أبي عثمان سعيد بن الحداد. فقد دعاه عبيد الله المهدي وبيَّن له عبيد الله حديث «غدير خم»: «من كنت مولاه فعلي مولاه» وهو حديث صحيح, فعطف عبيد الله فقال لأبي عثمان: فما للناس لا يكونون عبيدنا؟ فقال له أبو عثمان: أعز الله السيد لم يرد ولاية الرق, وإنما أراد ولاية في الدين, قال: فقال الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ آل عمران: ٧٩ - ٨٠.

فما لم يجعله الله عز وجل لنبي لم يجعله لغير نبي, وعلي لم يكن نبيًا, وإنما كان وزير النبي, فقال عبيد الله له: انصرف لا ينالك أحد.

ويذكر أن أبا عبد الله الشيعي قال له يومًا: القرآن يقر أن محمدًا ليس بخاتم النبيين.

فقال له: في قوله:﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ الأحزاب:٤٠، فخاتم النبيين ليس رسول الله.

فقال له سعيد: هذه الواو ليست من واوات الابتداء, وإنما هي من واوات العطف كقوله عز وجل: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ الحديد: ٣، فهل (من) أحد يوصف بهذه الصفات غير الله عز وجل؟ وتكلم (عنده) يومًا فغضب من كلامه رجل من كتامة يعرف بأبي موسى شيخ المشايخ وقام إليه بالرمح فمنعه أبو عبد الله من ذلك, ثم عطف على أبي عثمان فقال له: يا شيخ, لا تغضب أتدري إذا غضب هذا (الشيخ) كم يغضب لغضبه, اثنا عشر ألف سيف.

فقال أبو عثمان: ولكني (أنا) يغضب لغضبي (الله) الواحد القهار «الذي أهلك عادًا وثمود وأصحاب الرس وقرونًا بين ذلك كثيرًا»[1].

وذات مرة خرج لمناظرة «أبي عبد الله الشيعي» فخرج معه أهله وولده وهم يبكون فقال لهم: لا تفعلوا لا يكون إلا خيرًا, حسبي من له خرجت, وعن دينه ذببت.

---

[1] انظر: المالكى: رياض النفوس، تحقيق:بشير البكوش – محمد العروسي المطوي، دار الغرب الاسلامي، 60/2.

فلما دخل على الشيعي في قصر إبراهيم بن أحمد وكان حوله جماعة من أصحابه وجماعة مما ينسب إليهم العلم, سلم ثم جلس, فقال أبو عبد الله الشيعي لإبراهيم بن يونس وقد قيل له: إن هذا الشيخ كان قاضيًا على هذه المدينة: بأي شيء كنت تقضي؟

فقال له إبراهيم: بالكتاب والسنة.

فقال له أبو عبد الله: فما السنة؟

فقال (له) إبراهيم: السنة السنة.

قال أبو عثمان: فلما سمعته على قوله «السنة.. السنة».

قلت لأبي عبد الله: المجلس مشترك أو خاص؟

فقال: مشترك.

فقال أبو عثمان: أصل السنة في كلام العرب المثال الذي يتمثل عليه, قال الشاعر:

تريك سنة وجه غير مقرفة مأساء ليس بها خال ولا ندب

أي صورة وجه ومثاله.

والسنة محصورة في ثلاث: الائتمار بما أمر الله به رسوله, والانتهاء عما نهى عنه, والائتساء به فيما فعل.

قال الشيعي: فإن اختلف عليك فيما نقل إليك عن النبي وجاءت به السنة من طرق؟.

فقلت له: انظر إلى أصح الخبرين نقلاً فآخذ بأصحهما, وأطلب الدليل عليموضع الحق في أحد الحديثين, ويكون الأمر في ذلك كشهود عدول اختلفوا في شهادة, فلابد من طلب الدليل على موضع الحق من الشهادتين.

فقال الشيعي: فلو استووا في الثبات؟.

فقلت له: يكون إحداهما ناسخًا والآخر منسوخًا.

قال: فمن أين قلتم بالقياس؟

فقلت له: قلنا ذلك من كتاب الله عز وجل.

قال: فأين تجد ذلك؟.

قلت: قال الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾ المائدة: ٩٥ .

فالصيد معلومة عينه, والجزاء الذي أمرنا أن نمثله بالصيد (المعلومة) عينه ليس بمنصوص فعلمنا بذلك أن الله تعالى إنما أمرنا أن نمثل ما لم ينص ذكر عينه: بالقياس والاجتهاد ومنه قول الله عز وجل: "**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ**" [المائدة:95].

فلم يكله إلى حاكم حتى جعلها اثنين: ليقيسا ويجتهدا, فقال أبو عبد الله الشيعي: ومن ذوا عدل؟ وأومأ «ذوا عدل» إنما هم قوم مخصوصون بنص الآية.

قال: فقلت: هم الذين قال الله عز وجل فيهم في آية المراجعة: ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ الطلاق: ٢، ومثل ذلك في تثبيت القياس قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ النساء: ٨٣، والاستنباط غير منصوص.

ثم عطف (أبو عبد الله الشيعي) على موسى القطان فقال له: أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى؟

فقال له موسى: قال النبي: «**من شربها فاضربوه بالأردية, ثم إن عاد فاضربوه بالأيدي, ثم إن عاد فاضربوه بالجريد**».

فقال له أبو عبد الله على النكير منه: أين هذا؟ أقول لك أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى, تقول: اضربوه بالأردية وبالأيدي ثم بالجريد؟.

قال أبو عثمان: فقلت له: إنما حد قياسًا على حد القاذف «لأنه إذا شرب سكر, وإذا سكر هذى, وإذا هذى افترى, فوجب عليه ما يئول أمره إليه وهو حد القاذف»[1].

فقال لموسى القطان: أو لم يقل النبي: «أقضاكم علي»؟ فساق له موسى تمام نص الحديث وهو «وأعلمكم بحلال الله وحرامه معاذ, وأرأفكم أبو بكر, وأشدكم في دين الله عمر» رضي الله عنهم أجمعين.

فقال له الشيعي: وكيف يكون أشدهم في دين الله, وقد هرب بالراية يوم حنين؟.

فقال له موسى: ما سمعنا بهذا ولا نعرفه. قال أبو عثمان: فقلت له: تحيز إلى فئة كما أنزل الله تعالى, قال الله عز وجل: ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ الأنفال: ١٦.

---

[1] المالكى: رياض النفوس، 2/79.

(فمن تحيز إلى فئة) كما أمر الله عز وجل فليس بفار.

فمال الشيعي بوجهه إلى بعض أصحابه فقال: أتسمع ما قاله الشيخ, قال: انحاز إلى فئة كما أمر الله سبحانه.

فقال مجيبًا –هو يشير بيده– وأي فئة أكثر من رسول الله وقد كان حاضرًا ولم يتحيز وكأنه تخافت في كلامه ويسمع من يليه.

فقلت: جاء عنه أنه قال: «عمر فئة فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز إلى فئة» فسكت الشيعي[1].

وسأل أبو عبد الله الشيعي أبا عثمان الحداد فقال: أفلا أوجب قول الله تعالى عند من سمعه: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ ﴾ آل عمران: ١٤٤، انقلاب أصحاب محمد.

فقال له أبو عثمان: «لا»; لأن معناه أفإن مات أو قتل أفتنقلبون, عليأعقابكم; لأن معنى «أفإن مات»: استفهام, ومعنى «انقلبتم»: أفتقلبون والاستفهامان إذا جاءا في قصة واحدة اجتزئ بأحدهما عن الآخر, وهذا الاستفهام إنما هو في معنى التقرير بأن لا تنقلبوا على أعقابكم.

فقال له: فهل تجد في كتاب الله عز وجل نظيرًا يكون لهذا دليلاً؟

فقال له: نعم. قول الله عز وجل: ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الأنبياء: ٣٤, أي: إنك إن مت فهم لا يخلدون, فلما التقى استفهامان أجزأ ذكر أحدهما عن الآخر, فكان لفظ الاستفهام من ذلك مرادًا به التقرير: «بأنهم لا يخلدون»[2].

لم يكتف أهل السنة بنقل أقوال فقهاء السنة خارج مصر للرد على مذهب الفاطميين، بل رأينا بعضهم وهو الإمام الطرطوشى ينتحى لهذا الأمر ويتوجه بنفسه وجهاً لوجه مع الوزير السنى الأفضل بن بدر الجمالى، والذى كان بيده أمر الدولة الفاطمية فلم يغض الطرف عن خطايا الفاطميين الشيعة وطوامهم، فانتقدهم بشدة، ووجه رسالة إلى الوزير السنى الأفضل

(1) المالكى: رياض النفوس، 2/80.

(2) المالكى: رياض النفوس، 2/83.

شاهنشاه حرضه فيها على رعاية حقوق الله وحقوق العباد، وإظهار السنة وعدم المبالاة بما يمكن أن يفعله الفواطم الباطنية فقال: "أيها الملك! إن الله سبحانه و تعالى قد أحلك محلا عاليا شامخا، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك. فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك. وإن الله تعالى ألزم الورى طاعتك، فلا يكونن أحد أطوع لله منك... واعلم أن الملك الذي أصبحت فيه، إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عن يدك مثلما صار إليك. فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل..."[1].

ومن المواقف التى تجسد معارضة الطرطوشى للمذهب الإسماعيلى ومحاولته حمل بعض أهل السنة من أولى الأمر على معارضته ما ذكره الصفدى من أن الطرطوشى دخل يوماً على الأفضل ابن أمير الجيوش الوزير السنى فبسط له الأفضل مئزراً كان معه تحته وجلس عليه، وكان إلى جانب الأفضل رجل نصرانيّ فوعظ الطرطوشي الأفضل حتى بكى ثم أنشد:

يا ذا الذي طاعته قربةٌ ..... وحقّه مفترض واجب

إن الذي شُرِّفتَ من أجله ..... يزعم هذا أنه كاذب

وأشار الى النصراني فأقامه الأفضل[2].

عاد الطرطوشي إلى الإسكندرية، بعدما أدى النصح لولاة الأمور، وتفرغ بعدها للعلم والتعليم، وقد زادت شهرته بين الناس وازداد معه عدد الطلبة والتلاميذ، ولكن هذا الإقبال جر على الطرطوشي الوبال والمحن; فقد ضاق به قاضي الإسكندرية السنى المالكى ابن حديد ضيقًا شديدًا، خاصة وأن الطرطوشي كانت له فتاوى كثيرة يعارض فيها النظم والقواعد التي يسير عليها ولاة الدولة، وكان الطرطوشي دائم الانتقاد لسياسة بني حديد – التى كانت رغم سنيتها تمثل الفاطميين الشيعة –، وألف رسالة مهمة في نقد أوضاع وعادات

---

[1] أنظر: سراج الملوك، تحقيق جعفر البيانى، رياض السريس للكتب والنشر، ط1، 1990م، ص 123،124.

[2] الذهبى: سير أعلام النبلاء، 492/19 ; وانظر: الصفدى: الوافي بالوفيات، 175/5.

المجتمع وقتها سماها "بدع الأمور ومحدثاتها"، ثم أفتى بحرمة الجبن الذي يستورد من الروم وكانت تجارته رائجة، وتدر دخلاً كبيرًا على خزانة الدولة[1].

جمع القاضي السنى المالكى ابن حديد هذه الأنشطة كلها، ورفعها إلى الوزير السنى الأفضل بن بدر الجمالى وشفعها ببيان خطورة الطرطوشي على البلد، ولربما يؤدي لثورة الناس، وضعف الإيرادات بسبب فتاويه وانتقاداته المحرضة، ولم يكن الوزير بحاجة لمزيد من الشحن والتحريض ضد الإمام الطرطوشي لا سيما وأنه رغم إصلاحاته كوزير سنى فقد كان يخشى ثورة بالإسكندرية كتلك التى اشتعلت من قبل عقب وفاة المستنصر، فأرسل الأفضل إلى القاضى ابن حديد يأمره بإرسال الطرطوشي إليه، فلما جاءه الرسول الذي سيحمله إلى القاهرة قال له: " يسر حوائجك فإنك تمشي يوم كذا "، فقال الطرطوشي: «وأي حوائج معي؟ ريش الكتابة، وطعامي في حوصلتي» مما يدل على زهده ورقة حاله، واستعداده الدائم لتقبل النوازل والمحن[2].

وصل الطرطوشي إلى القاهرة سنة 514هـ، وهناك أمره الوزير الأفضل بالبقاء في الفسطاط وحدد إقامته في مسجد الرصد جنوبي الفسطاط [القاهرة القديمة]، وضيق عليه بشدة، ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه، وجعل رزقه الشهري بضعة دنانير.

ظل الطرطوشي رهن الإقامة الجبرية في مسجد الرصد، شهورًا طويلة، لا يجرؤ أحد على زيارته أو الاجتماع معه، وقد تحول المسجد إلى معتقل كبير للإمام، حتى أن الناس قد هجروا الصلاة في المسجد; خوفاً من أن يتهموا بالاتصال بالشيخ، وتطاولت الأيام على الطرطوشي وهو وحده في المسجد، وليس معه إلا خادمه، وكان أشد شيء على الإمام منعه من التدريس والتعليم والاجتماع مع تلاميذه وطلبته، وضاقت نفسه بشدة من هذه المحنة[3].

فلما طال مقام الطرطوشى بالمسجد، ضجر وقال لخادمه: إلى متى الصبر؟ اجمع لي المباح فجمعه فصار هو طعامه ثلاثة أيام، فلما كان عند صلاة المغرب، دعا على الأفضل، وقال

(1) الشيال: أعلام الإسكندرية، ص75.
(2) نفسه، ص76.
(3) نفسه، ص76،77.

لخادمه: رميته الساعة فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل، وولي بعده المأمون البطائحي فأكرم الشيخ إكراماً كثيراً[1].

الجدير بالذكر أن الوزير الأفضل رغم سنيته إلا أنه اضطر لأن يفعل مع الطرطوشى ما فعل مخافة من تهديد الدولة، وانتفاض الناس ضده، فضلاً عن خوفه من اشتداد الصراع بين الطرطوشى والقاضى ابن حديد السنى، فتتحول الأمور إلى صراع سنى سنى بالإسكندرية، لا سيما وأن الأفضل عالج أموراً كثيرة، وحاول أن يوجه الدوله تجاه الإصلاح بناءً على مذهبه السنى، وكان يعلن ذلك ولا يخفيه كما أشرنا بالفصل الثانى من هذه الدراسة.

تولى الوزارة بعد الأفضل، المأمون البطائحي، وكان يجل الشيخ الطرطوشي، ويعرف المحنة التي وقعت له مع الأفضل، فأخرجه من الحبس وأكرمه، فطلب الطرطوشي من الوزير الجديد أن يأذن له بالعودة إلى الإسكندرية، فأذن له، فلما عاد جعل الطرطوشي شغله الشاغل في تأليف كتاب في فن السياسة والحكم وأصول العدل والرفق بالرعية، حتى يقدمه كدليل للوزير الجديد حتى لا تأخذه غرة الحكم وأبهة السلطان.

وقد بلغ من تقدير الوزير الشيعى المأمون البطائحى للفقيه السنى الطرطوشى أن كلف المأمون أخاه الأمير مؤتمن الخلافة والى الإسكندرية أن يبنى مسجداً بالإسكندرية للطرطوشى بمجرد أن علم الوزير برغبة الأخير فى إنشاء مسجد لإقامة الحلقات العلمية به[2].

كذلك حرص الطرطوشى على إبطال ما عليه الشيعة الإسماعلية من إبطال لصلاة التراويح وغيرها، فنراه يصنف كتاباً عن الحوادث والبدع يضمنه باباً خاصاً بصلاة التراويح، جمع فيه أقوال المذاهب السنية بشأنها، وتحدث عن أنها سنة، وذكر أقوال من قال تصلى جماعة أم لا، وكذا تعرض لمكان صلاتها أفى المسجد أم فى البيت[3].

---

[1] الصفدى: الوافي بالوفيات، 5/175.

[2] محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، دار المعارف، القاهرة، 1970م، ص121.

[3] أنظر: الحوادث والبدع، تحقيق على بن حسن الحلبى، دار ابن الجوزى، الرياض، ط2، 1417هـ /1996م، ص47-60.

وممن عارض المعتقد الإسماعيلى من فقهاء أهل السنة الفقيه الشافعى نجم الدين الخبوشانى والذى كان يقول: أصعد إلى مصر وأزيل ملك بني عبيد اليهودي... قال السبكى: فنزل بالقاهرة وصرح بثلب أهل القصر وجعل سبهم تسبيحه فحاروا فيه فنفذوا إليه بمال عظيم قيل: أربعة آلاف دينار فقال للرسول: ويلك ما هذه البدعة؟! فأعجله فرمى الذهب بين يديه فضربه وصارت عمامته حلقاً وأنزله من السلم، ومات العاضد وتهيبوا الخطبة لبني العباس فوقف الخبوشاني بعصاه قدام المنبر وأمر الخطيب بذلك ففعل ولم يكن إلا الخير وزينت بغداد[1].

ومن فقهاء أهل السنة الذين عارضوا المذهب الإسماعيلى وخططوا للإطاحة بالدولة الفاطمية ومعتقدها الباطل القاضي الفاضل (529ـ 596 هـ/1135 ـ 1200م) محيي الدين أبوعلي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن المفرج بن أحمد اللخمي العسقلاني البيساني، الوزير الأديب صاحب ديوان الإنشاء وشيخ البلاغة وإمام المترسلين في عصره. ولد في مدينة عسقلان، وانتقل إلى بيسان من أعمال فلسطين مع والده الذي تولى قضاءها للفاطميين، فاعتنى بتربيته وأرسله إلى الكتاب ليتلقى مبادئ العلوم، فحفظ القرآن الكريم وأظهر ميلاً إلى الأدب، فأرسله والده إلى ديوان الإنشاء في القاهرة وهو في الخامسة عشرة ليتدرب على فنون الكتابة، واهتم به رؤساء ديوان الإنشاء، ولازم الموفق ابن الخلال، وأخذ عنه صنعة الكتابة وعندما آنس في نفسه القدرة على الكتابة سافر إلى الإسكندرية وكتب لقاضيها ومتولِّي أمرها ابن حديد مدة ثماني سنوات، وأعجب أهل الدولة بكتابته، فاستقدمه الوزير العادل ابن رُزِّيك إلى القاهرة وجعله رئيس ديوان الجيش ثم انتقل إلى ديوان الخلافة الفاطمية وسرعان ما صار المتصرف في المكاتبات باسم الخليفة الفاطمي.

وحينما تولى أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر توثقت الصلة بين القاضي الفاضل وأسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وأنس به صلاح الدين وقربه منه، وقبل منه خططه للإطاحة بالدولة الفاطمية على ما سبق وأشرنا بالفصل الثانى.

---

[1] السبكى: طبقات الشافعية، 7/15.

obeikandl.com

المبحث الثالث: موقف أهل السنة من أهل الذمة

ارتفعت مكانة أهل الذمة من اليهود والنصارى فى عصر الفاطميين للدرجة التى وصلوا فيها إلى أعلى المناصب كما سبق وأن ذكرنا بالفصل الأول، وكان السبب فى ذلك هو تهميش أهل السنة واستبدالهم بغيرهم ممن يوافقون الفاطميين على مذهبهم الإسماعيلى.

لقد عارض فقهاء السنة هذا التمكين لأهل الذمة على يد الفاطميين، ومن هؤلاء نجم الدين الخبوشانى الشافعى والذى كان متى ما رأى ذمياً راكباً قصد قتله فظفر بأحدهم ويدعى بابن شوعة فأندر عينه بعصاه فذهبت هدرا[1].

وقد أسلفنا موقف أهل السنة من تجديد كنائس أهل الذمة ومحاولتهم منع ذلك بتحريض المسلمين للخروج فى تجمعات كما وقع أيام المعز، وأيام المستنصر[2]، كذلك أوضحنا موقف أهل السنة من تولية حكام الفاطميين للذميين المناصب العليا فى الدولة بالفصل الأول مما هو غنى عن إعادته.

وتجدر الإشارة إلى أن حكام الفاطميين كانوا فى بعض الأحيان يضطرون لتطبيق أقوال فقهاء السنة بتمييز اليهود والنصارى بزى يختلف عن زى المسلمين، وكذا يختلف زى كل طائفة عن الأخرى، وهو ما رأيناه فى عهد الحاكم بأمر الله عندما ألزم اليهود بشد الزنار على أواسطهم ولبس الغيار، وصبغ أطراف عمائمهم، وتعليق كبة خشب على شكل رأس عجل فى أعناقهم، وكذا وقع قريبا من هذا الأمر فى عهد المستنصر، وفى عهد الفائز أمر الوزير طلائع بات رزيك اليهود بأن لا يكون لعمائمهم ذوائب، وفى عهد العاضد ألزم الوزير السنى أسد الدين شيركوه اليهود بأن يجعلوا فى عمائمهم خرقة صفراء تمميزا لهم عن النصارى[3].

وحال وقوع الشدائد كان أهل السنة من الفقهاء والعوام يعتدون على غير المسلمين حال تورطهم فى الأمر، ومن ذلك ما وقع فى العام 386هـ من احتراق الأسطول المصرى الذى أمر

---

[1] الذهبى: سير أعلام النبلاء، 206/21.

[2] فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، تاريخ المصريين، رقم 172، 320/1.

[3] نفس المرجع، 438/1.

ببنائه العزيز بالله لقتال الرومان، وجدنا المسلمون من أهل السنة يعتدون على التجار الرومان من النصارى، والذين قدموا إلى مصر ببضاعتهم، وقتلوا منهم مائة وستين تاجرا، كما هجموا على دور التجار الرومان واستولوا على محتوياتهم، وامتدت اياديهم إلى بعض الكنائس الملكانية وخربوها واستولوا على ما فيها[1].

وكان بعض أهل السنة يتعرضون للنصارى ولنسائهم فى الشوارع، وذلك كرد فعل لتسلطهم على المسلمين معظم فترات الحكم الفاطمى، كما كان يحدث نفس الأمر مع اليهود، وكان يتم القبض على بعض اليهود ويودعون السجون، لموافقة ذلك لما فى عقول السلطة الحاكمة[2].

[1] أنظر: تاريخ ابن سعيد الأنطاكى، ص178،179.

[2] فاطمة مصطفى: تاريخ أهل الذمة، ص451،452.

obeikandl.com

المبحث الرابع: الأثر الفكرى لأهل السنة

أما بخصوص الحياة الفكرية وأثر أهل السنة فيها فيمكننا القول بأن الفاطميين، منذ أن استقر سلطانهم في مصر، وقد اهتموا بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية فضلاً عن الثقافة المذهبية[1] التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية كالفقه والتفسير. وكان للجامع الأزهر أثر كبير في النهوض بالحياة الثقافية في مصر. وقد ظهرت فكرة الدراسة به في أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي حين قام قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان المغربي بشرح كتاب "**الاقتصار**" الذي وضعه أبوه، ويشتمل على مسائل فقهية استمدها من أئمة أهل البيت، وهو مختصر لكتاب فى الفقه الشيعى الإسماعيلى صنفه ابن حيون ; كما أن أخاه أبا عبد الله محمد بن النعمان جلس في ربيع الأول من سنة 385 هـ بقصر الخليفة لقراءة علوم أهل البيت[2].

وفي أوائل عهد العزيز بالله، جلس الوزير يعقوب بن كلس بالجامع الأزهر وقرأ على الناس رسالة ألفها في الفقه الشيعي على المذهب الإسماعيلي تسمى "**الرسالة الوزيرية**"، تضمنت ما سمعه في ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز وكان يفد إلى سماعه الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة. وصار بن كلس يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطوراً بداره، يقرأ فيها مصنفاته على الناس.

على أن الجامع الأزهر ما لبث أن فاقت شهرته جميع المساجد الجامعة في مصر منذ أن أشار الوزير يعقوب بن كلس سنة 378 هـ على الخليفة العزيز بالله بتحويله إلى معهد للدراسة بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية، فاستأذنه في أن يعين بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس، على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر. فرحب العزيز بذلك ورتب لهؤلاء الفقهاء أرزاقاً شهرية ثابتة، وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر [3].

---

(1) حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص 127.

(2) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 156/4 ; وانظر: محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة، 1978، ص230 ; عبدالباقى السيد: الأزهر وأثره فى ترسيخ القيم والتعايش السلمى، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2016م، ص30.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 441/2 ; وانظر: المقريزى: المواعظ، 157/4 ; حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص127 ; عبدالباقى السيد: الأزهر، ص31.

كذلك اهتم الفاطميون بإنشاء المكتبات، فألحقوا بالقصر الشرقي الكبير مكتبة زودوها بأندر المؤلفات في مختلف العلوم والفنون حتى تميزت على غيرها من مكتبات العالم الإسلامي بما في خزانتها من كتب قيمة، وكان تجار الكتب يعرضون على موظفي مكتبة القصر أندر الكتب التي يعثرون عليها. وذكر المقريزي أن رجلاً أحضر إلى العزيز بالله نسخة من كتاب الطبري اشتراها بمئة دينار، فأمر العزيز أمناء المكتبة، فأخرجوا من الخزائن ما ينيف عن عشرين نسخة من "**تاريخ الطبري**"، منها نسخة بخط يده; كما كان بخزانة العزيز ما يزيد على ثلاثين نسخة من كتاب "**العين**" للخليل بن أحمد، ومئة نسخة من "**الجمهرة**" لابن دريد[1]. كذلك ألحق الفاطميون بالأزهر مكتبة أشار إليها ابن ميسر فى أخبار سنة 517هـ، وأُسند الإشراف عليها لأبى الفخر صالح كبير الدعاة، وقد وصلت محتوياتها إلى ما يقرب من خمسين ألف كتاب ايام الحاكم بأمر الله الفاطمى[2].

ولا شك أن فئة من أهل السنة كانوا من جملة تجار الكتب، ومنهم من أحضر النسخة الخاصة بتاريخ الطبرى للعزيز بالله، وهوما يعد أثراً فكرياً واضحاً لأهل السنة يحسب لهم كأحد أسباب تحقيق الرواج الفكرى فى مصر الفاطمية. ولكن الغريب فى الأمر هو كيف يقبل العزيز بالله الشيعى الإسماعيلى كتاباً لأحد أئمة السنة الكبار كالطبرى ؟! لا سيما أن للشيعة تحفظات كبيرة على مرويات السنة التاريخية الخاصة بفترة الراشدين والدولة الأموية.

وكثيراً ما كان الخليفة الفاطمي يزور خزانة الكتب في القصر الشرقي. فيأتي راكباً، ثم يترجل ويأخذ مجلسه فوق دكة منصوبة. ويمثل بين يديه أمين الخزانة ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين، ويعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته في مجلسه الخاص[3]، وكان بمكتبة القصر أربعون خزانة كتب في سائر العلوم، وتحتوي كل خزانة على عدة رفوف، والرفوف مقطعة بحواجز، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مئة ألف مجلد في الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء.

(1) المقريزي: المواعظ، 1/ 408.

(2) عبدالباقى السيد: الأزهر، ص43.

(3) المقريزي: المواعظ،1/ 409.

وهنا لابد لنا من وقفة حول أمرين:

الأول: المصاحف المكتوبة، وهل كانت موافقة لما عليه الشيعة من معتقد يغاير ما هو عند أهل السنة ؟ أم أنها كانت كالتى بين أيادى أهل السنة ؟، وأيا ما كان الأمر فلا شك ان أهل السنة كان لهم أثر بخصوص متابعة المصاحف التى يعول عليها الشيعة الإسماعيلية، وينبهون على ما فيها من أخطاء وزيادات باطلة أدرجت فى كتاب الله وليست منه. خاصة وأن من أئمة الإسماعيلية من كان يقول بتحريف القرآن كالقاضى النعمان. وكثير من كتب الشيعة طافحة بذلك[1]، لا سيما كافى الكلينى، كما بيناه فى كتابنا " كافى الكلينى فى الميزان "، والذى نأمل أن يرى النور قريباً.

الثانى: وجود آلاف الكتب الفقهية فى شتى المذاهب يؤكد أن المذاهب الفقهية السنية كان لها تواجد فى مكتبات الإسماعيلية، ومن ثم يؤكد حقيقة الأثر السنى فى ذلك، وما كان يترتب عليه من مناقشات وحوارات حول العديد من القضايا الفقهية لا سيما ما يخص الفقه المقارن.

ومن المراكز الثقافية بمصر دار الحكمة التي أسسها الحاكم بأمر الله سنة 395 هـ، وأطلق عليها هذه التسمية رمزاً إلى الدعوة الشيعية; لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة. وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم، حوت الكثير من الكتب في سائر العلوم والآداب، من فقه ونحو ولغة وكيمياء وطب، وسمح لسائر الناس بالتردد عليها [2]، وفي ذلك يقول المقريزي: " وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك لسائر الناس على طبقاتهم: فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر "[3].

---

(1) أنظر: الطبرسى: الاحتجاج، 228/1 ; الكاشانى: الصافى،27/1 ; نعمة الله الجزائرى: الأنوار النعمانية، 264،263/2.

(2) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص. 155.

(3) ابن المأمون: أخبار مصر، ص45،44 ; وانظر: ابن ميسر: أخبار مصر، ص95 ; المقريزي: المواعظ والاعتبار، 1/ 158.

وكان بين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والطب والتنجيم، من أمثال ابن يونس المنجم وأبي علي الحسن بن الهيثم وعلي بن رضوان[1]، واستطاعت دار الحكمة، بفضل هؤلاء الأساتذة وما كان لها من مناهج منوعة جمعت بين الدراسات العلمية والفقهية، أن تجتذب كثيراً من أعلام المشرق من أمثال الرحالة الفارسي ناصر خسرو والداعي الحسن بن الصباح، اللذين وفدا إلى مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي.

الجدير بالذكر أن دار الحكمة ولجها من جملة جمهورها بعض الأفراد من أهل السنة، ونجحوا فى التأثير على رواد الدار، وإقناعهم باعتناق المذاهب السنية بدلاً من المذهب الإسماعيلى، وهو ما كان سبباً لغلقها سنة 513 هـ – حسب رواية ابن المأمون وابن ميسر ومن نقل عنهما – بسبب ما وصل إلي الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة، وهي الشافعي والحنفي والمالكي، يترددان على دار العلم، وأن كثيراً من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب. على أن إغلاق دار العلم لم يطل أمده; فقد أعادها الخليفة الآمر إلى ما كانت عليه بعد وفاة الأفضل[2]; وهذه الرواية إن كانت قد أكدت نفاذ أهل السنة إلى دار الحكمة الشيعية فلا يمكن أن نقبل بها كسبب لإغلاق الدار لعدة أسباب:

أولا: أن الأفضل ابن بدر الجمالى كان وزيراً سنياً، وليس من المعقول أن يجد نجاحاً ملموساً لمذهبه الذى يعتقده ويقف فى وجهه.

ثانياً: أن أحد الرجلين اللذين انتسبا لطريقة البديعية ادعى الربوبية بعد ذلك[3]، وهو ما يؤكد أن فكره كان بعيداً كل البعد عن السنة، ومن ثم فلعل الأفضل تدارك ذلك، وأمر بغلق الدار حتى لا يُتخذ كلام هذا الرجل وصاحبه ذريعة لتشويه المذاهب السنية.

ثالثاً: أن المصادر أوردت لنا رواية أخرى عن سبب الغلق، وهى الخوض فى المذاهب الشيعية، ومن جملتها المذهب النزارى[4].

---

(1) حسن إبرهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص429.

(2) المقريزي: المواعظ والاعتبار، 1/ 459.

(3) ابن المأمون: أخبار مصر، ص45.

(4) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 460/1; وانظر: القلقشندى: صبح الأعشى، 362/3.

وقد تجلى نشاط الحركة الفكرية في مصر منذ أن اتخذ الفاطميون القاهرة حاضرة لخلافتهم، ففتح الخليفة المعز لدين الله أبواب قصره للعلماء والطلاب، وأباح لهم جميعاً الاطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر. وحذا الخلفاء من بعده حذوه، فصاروا يعقدون المجالس العلمية والأدبية بقصورهم ويدعون إليها الفقهاء على اختلاف مذاهبهم والعلماء والأدباء فيتناظرون بحضرتهم. ولم تكن هذه المجالس تقل في قيمتها التعليميّة عن الدروس التي تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة.

الجدير بالذكر أن تشجيع الحركة الفكرية ودعمها لم يكن قاصراً على الخلفاء الفاطميين ومن يدور فى فلكهم من رجال الدولة الشيعة، بل وجدنا من وزراء السنة من حرص على دعم الفكر والثقافة كالأفضل بن بدر الجمالى الذى أسس خزانة كتب ضمت خمسمائة ألف مجلد[1]، ولا شك أن هذا العدد الضخم من الكتب كان متاحاً لأهل السنة لا سيما وأن هذا الوزير السنى كان يهدف إلى لملمة شتات أهل السنة، والقضاء على المشروع الشيعى الفاطمى كما أشرنا من قبل.

كذلك كان للقاضى الفاضل دور مهم فى تقريب الثقافة والفكر إذ أوقف على مكتبة مدرسته مائة ألف كتاب من مجمل كتبه التى بلغت مائتى ألف كتاب، وذلك تيسيراً على الطلاب[2]; وقد سبق القاضى الفاضل أحد العلماء السنة وهو الأدفوى (ت 388هـ) فى عملية وقف الكتب على طلبة العلم[3].

وقد أدى مجيء الفاطميين إلى مصر بمذهب شيعي له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة في مصر إلى ظهور فريقين من العلماء، يعمل أولهما على تأييدهم، ويفند الفريق الآخر آراءهم المخالفة لأهل السنة[4]. واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية في تأليف الكتب. وكان لأبي حنيفة النعمان المغربي وأبنائه الفضل الأكبر في نشر الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية.

---

(1) ابن ميسر: أخبار مصر، ص80 ; وانظر: المقريزى: إتعاظ الحنفا، 70/3.

(2) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 365/2.

(3) الإدفوى: الطالع السعيد، ص307.

(4) أحمد أمين: ظهر الإسلام، 1/ 188.

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الإسماعيلي وتشجيعهم فقهاءه، فقد ظهر في عهدهم من عارضهم، وتعقب أقوالهم واستنكرها من فقهاء السنة كأبى بكرمحمد النُعالي المالكي (ت سنة 380 هـ). وكانت حلقته بجامع عمرو بن العاص تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها[1].

ومن فقهاء السنة الذين حظوا بتقدير الفاطميين فأبقوهم فى مناصبهم الرسمية أبو الطاهر الذهلى (ت 367هـ) الإمام العالم المسند المحدث قاضي القضاة أبو الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن بجير الذهلي البغدادي المالكي، قاضي الديار المصرية. الذى ظل قاضيا حتى وفاته فى العام 367هـ، وقد جمع بين عمله الرسمى وبين تعليم الناس الحديث وعلومه وتفقيههم على المذهب المالكى، وقد اشتهر بأنه: "كان مفوها، حسن البديهة، شاعرا، علامة، حاضر الحجة، عارفا بأيام الناس، غزير المحفوظ، لا يمله جليسه من حسن حديثه، وكان سمحاً كريماً[2]"، وقد شارك فى الحركة التفسيرية حيث تأصيل التفسير السنى فى مواجهة التأويلات الباطنية الإسماعيلية فاختصر تفسير الجبائي، وتفسير البلخي[3].

ويتضح أثر القاضى الذهلى فى تعليم الناس الحديث والفقه واللغة العربية وغيرها من كلام ابن زولاق حيث يقول: " حصل للناس عنه إملاء وقراءة نحو مائتي جزء، وحدث بكتاب " طبقات الشعراء " لمحمد بن سلام رواه عن أبي خليفة، عنه..... ولم يزل أمره مستقيماً إلى أن لحقته علة عطلت شقه في سنة 366 فقلد العزيز صاحب مصر القضاء حينئذ علي بن النعمان، وكانت ولاية أبي الطاهر ست عشرة سنة وعشرة أشهر، وأقام عليلاً، وأصحاب الحديث منقطعون إليه[4]".

ومن فقهاء المالكية الذين نشروا الفقه بالإسكندرية، - وكانوا بها أكثرية - أبو الحرم مكي نفيس الدين (ت 501هـ)، وقد أدرك السنين الأولى في الحروب الصليبية، وألف شرحاً

(1) أحمد أمين: ظهر الإسلام،، 1/ 197.
(2) الذهبى: سير أعلام النبلاء، 207/16.
(3) نفسه، 210/16.
(4) نقلا عن الذهبى: سير، 210/16.

عظيماً لتهذيب المدونة للبرادعي عدة مجلداته ستة وثلاثون مجلداً و، كان يقيده على دروسه التي كان يلقيها في المدرسة العوفية وكان يحضر عنده فضلاء ويتحرر بينهم بحوث فيكتبها في الحواشي فكمل على هذا الحال، وله شرح على ابن الجلاب في فقه المالكية أيضاً في عشر مجلدات[1].

ومن أبرز فقهاء السنة الذين كان لهم نشاط علمى فى مصر الإمام الطرطوشى، والذى شغل نفسه بهموم ومشاكل المسلمين فى مصر وسائر البلدان، ومن ثم رأيناه يوظف مصنفاته حسب النوازل والمشاكل التى رصدها بنفسه.

وتجدر الإشارة إلى أن الطرطوشى لم يشرع في التأليف والتصنيف إلا بعد أن جاوز الأربعين، واستقر في الإسكندرية، ومع ذلك ترك تراثاً علمياً وافراً منه:

أولا: كتبه المطبوعة:

1- سراج الملوك :طبع بدار رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى كانت سنة 1990 ميلادية بتحقيق جعفر البياتي، ويقع الكتاب في 629 صفحة .وهو من أهم كتبه على الإطلاق، وأجودها في بابها، كتبه الطرطوشي بعد المحنة التي تعرض لها، والكتاب يعتبر من أوائل الأطر الشرعية الكاملة للنظم السياسية في الحكم والولاية، وقد قسم الطرطوشي كتابه ذلك إلى أربعة وستين فصلاً تتعلق بسياسة الملك وفن الحكم وتدبير أمور الرعية، وعلى منواله نسج العلامة ابن خلدون كتابه الأشهر (المقدمة)، وقد اعترف ابن خلدون بفضل أسبقية الطرطوشي في ذلك المضمار[2].

2- الحوادث والبدع :حققه عبد المجيد التركي وطبع ببيروت الطبعة الأولى سنة 1990 / 1410 بدار الغرب الإسلامي ويقع في 495 صفحة. وطبع طبعات عديدة، وقد صنفه الطرطوشى ليوضح حقيقة البدع المنتشرة فى مصر فى عهد الفاطميين، ولتكون تنبيهاً لأهل السنة بتجنب هذه البدع الدخيلة عليهم[3]، وقد بنى الطرطوشى منهجه في كتابه

---

[1] ابن فرحون: الديباج المذهب، 1/293.

[2] لمزيد من التفاصيل عنه أنظر: عبدالباقى السيد: كتاب الإمامة والسياسة لابن حزم الظاهرى وأثره فى الحضارة الإسلامية، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2017م.

[3] جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية، 81-93.

على قواعد مذهب الإمام مالك، وتبرز أهمية الكتاب، فضلا على منزلة مؤلفه ومكانته العلمية، في كثرة النقول عنه، فقد نَقل عن الإمام الطرطوشي جُلُّ من أتى بعده، ممن ألف في البدع، أو تكلموا عنها، ومنهم: الإمام الشاطبي في: "الاعتصام"، وأبو شامة في كتابه: "الباعث على إنكار البدع والحوادث"[1]، وابن حجر في: "تبيين العجب فيما ورد في فضل رجب"[2]، والسيوطي في: "الأمر بالإتباع"، وفي"تحذير الخواص من أحاديث القصاص."([3])، والقاسمي في "إصلاح المساجد"[4]، والزبيدي في "إتحاف السادة المتقين"[5]، وغيرها كثير، بل إن كتابه كان يذكر في الأثبات والمشيخات، ويرويه أهل العلم لطلابهم; كما في "صلة الخلف بموصول السلف" للروداني[6].

3- الدعاء المأثور وآدابه، وما يجب على الداعي اتباعه واجتنابه :تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية. نشرته دار الفكر المعاصر ببيروت في طبعته الأولى سنة 1988، ويقع في 368 صفحة .

4- بر الوالدين، وما يجب على الوالد لولده، وما يجب على الولد لوالده :حققه محمد عبد الحكيم القاضي، وصدر في طبعته الثانية عن مؤسسة الكتب الثقافية سنة 1988م، يقع في 211 صفحة .

5- رسالة إلى يوسف بن تاشفين.

6- جزء عارض به الإحياء للإمام لغزالي :وذكره عبد الكريم العثماني في كتاب: سيرة الغزالي، وأقوال المتقدمين فيه. قدم له أحمد فؤاد الأهواني وطبع بسوريا بمطابع دار الفكر الدمشقية بدون تاريخ .

---

[1] أنظر: الباعث، ص30.

[2] أنظر: تبيين العجب، ص69.

[3] أنظر: الأمر بالاتباع، ص183 ; تحذير الخواص، ص213.

[4] أنظر: إصلاح المساجد، ص71.

[5] أنظر: إتحاف السادة المتقين، 6/483.

[6] أنظر: الحوادث والبدع، تحقيق على بن حسن الحلبى، دار ابن الجوزى، الرياض، ط2، 1417هـ /1996م، ص22.

7- رسالة في تحريم جبن الروم، طبعت ملحقة بكتاب تحريم الغناء.
8- تحريم الغناء واللهو على الصوفية في رقصهم وسماعهم.
9- حاشية على إثبات الواجب[1].

ثانياً: كتبه المخطوطة :

1- تحريم الاستمناء :وتوجد نسخة من هذه الرسالة بخزانة برلين رقم 4981 .
2- نزهة الإخوان المتحابين في الله :خزانة كوتا بألمانيا رقم 909.
3- الأسرار والعبر :ذكر العلامة المنوني أنه وجده بخزانة خاصة بمراكش سنة 1983م ونشر بعضه في مقال له بحوليات كلية الآداب بالرباط عدد 9 سنة 1988. وذكره الطرطوشي في (سراج الملوك) الباب 23 ص211 تحقيق البياتي .
4- كتاب المجالس :يوجد ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط رقم 1095 د، ويقع في 75 ورقة .
5- غريب المعاني ولطائف التداني :مخطوط بخزانة سيدي يوسف بن علي بمراكش في مجموع قسم التفسير 352/2.
6- مختصر الكشف والبيان عن تفسير القرآن، وهو مختصر لتفسير الثعالبى، ويوجد بدار الكتب والوثائق القومية بمصر، ويقع في مئتي ورقة.

أما عن كتبه المفقود فيمكن أن نجملها فى الآتى:

1- التعليقة الكبرى في الخلافيات[2]، وهو كتاب كبير فى الفقه المقارن.
2- كتاب الأسرار، تحدث فيه عن العقل وحقيقته وأقسامه.
3- مختصر كتاب أخلاق رسول الله ﷺ، وأصل الكتاب لأبي محمد عبد الله بن جعفر بن حبان[3].

---

(1) جعلها عبد المجيد تركي مقدمة كتاب الطرطوشي: الحوادث والبدع، ص19، وكتاب الدعاء المأثور للطرطوشي بتحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، ص18، وتقديم جعفر البياتي لسراج الملوك، ص 20 .

(2) ابن فرحون: تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، مراجعة طه عبدالرؤف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1406،1هـ/1986م،1/ 16 ; ابن خلكان: وفيات الأعيان، 394/3. ;

(3) ابن خير: فهرسة ابن خير، تحقيق إبراهيم الإبيارى، دار الكتاب المصرى واللبنانى، القاهرة – بيروت، ط1410،1هـ/1989م، ص271، جمال الدين الشيال: أبو بكر الطرطوشي، العالم الزاهد، سلسلة أعلام العرب، ص106.

4- جزء فيه منتخب في عيون خصائص العباد[1].
5- ثلاثة أجزاء فيها الكلام عن الغنى والفقر[2].
6- كتاب الفتن[3].
7- رسالة العدة عند الكروب والشدة.
8- شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني فى الفقه المالكى.
9- كتاب النهاية في فروع المالكية.
10- كتاب نفائس الفنون.
11- كتاب في الرد على اليهود.
12- العمد في الأصول.
13- سراج الهدى وزاد المسافر.
14- كتاب أصول الفقه.
15- كتاب إحياء الليل الذي رد فيه على إحياء علوم الدين للإمام الغزالي. حيث كان علماء المغرب والأندلس ينكرون على الغزالي بقوة ذلك الكتاب، وحجتهم في ذلك، تلك الرسالة القوية والشديدة التي ألفها الطرطوشي في الرد على الغزالي، وشبه كتابه بإماتة علوم الدين، وقد أفتى الطرطوشي بإحراق الكتاب لما فيه من سموم قاتلة وأفكار باطنية ورموز فلسفية، وتقلد علماء المغرب تلك الفتوى وأحرقوا الكتاب وعاقبوا عليه أشد العقاب، وتلك الفتوى كانت سبباً فى شغب البعض على الطرطوشي، ورميه بالتعصب[4].

لم يكتف الطرطوشى بالتصنيف فحسب. بل شارك بقوة فى الحركة العلمية من خلال تعليم الناس والعمل على هدايتهم وهو ما يتضح منذ نزوله الإسكندرية حيث قتل الأمير بها علماءها

---

[1] ابن خير: الفهرست، ص 299.
[2] ابن خير: مصدر سابق، ص299.
[3] ابن خلكان: وفيات الأعيان، 3/ 394 .
[4] عن نص ما ذكره الطرطوشى فى كتاب إحياء علوم الدين ومصنفه أنظر مقدمة محقق الحوادث والبدع للطرطوشى، ص18،17.

obeikandl.com

فوجد الطرطوشى البلد عاطلا عن العلم فأقام بها وبث علما جما،وكان يقول:إن سألني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية لما كانت عليه في أيام الشيعة العبيدية من ترك إقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم أقول له: وجدت قوما ضلالا فكنت سبب هدايتهم[1].

ويذكر ابن فرحون عن بعض تلامذته قوله:وخرجنا معه في بعض النزه فكنا ثلاثمائة وستين رجلا لكثرة الآخذين عنه المحبين صحبته[2].

لم يلبث الطرطوشي في الإسكندرية إلا قليلاً حتى عرف واشتهر، وأقبل عليه طلبة العلم الذين وجدوا فيه ضالتهم، وكأنهم قد وقعوا على كنز، فازدحموا على دروسه، وكان الطرطوشي قد تزوج من سيدة موسرة صالحة من نساء الإسكندرية، فأطلقت يده في أموالها ووهبته دارًا من أملاكها، فقرر الطرطوشي أن يجعل تلك الدار مدرسة علمية على طراز المدارس النظامية التي رآها في بغداد أثناء رحلته، والتحق بتلك المدرسة الكثير من طلبة العلم، وكان الطرطوشي ينفق على تلاميذه ويضيف الغرباء منهم فيها[3].

وقد نجح الطرطوشى فى تأسيس مدرسة فكرية كان من أبرز رجالها تلميذه الإمام الفقيه أبو على سند بن عنان بن ابراهيم بن حريز الذى تفقه ولازم أستاذه أبو بكر الطرطوشى، وكان أقرب تلاميذه إليه، وأخذ عنه العلم والفقه وفلسفة الزهد، وجلس فى حلقته من بعده، وانتفع به الناس، وشرح كتاب المدونة فى فقه المالكية شرحا كبيرا فى ثلاثين مجلدا وسماه (الطراز) غير أنه توفى قبل إتمامه، لإلقاء الدروس وبخاصة فى الفقه المالكى، واستمر فى التدريس إحدى وعشرين سنة حتى وفاته عام (541 هـ / 1146 م)[4]، وله تآليف في الجدل، ومن فقهاء المالكية الذين نشروا العلم بالإسكندرية أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن على الميورقى (ت 522هـ)، وهو من علماء الأصول والجدل، استوطن الإسكندرية، وصنف مصنفاته فى الخلاف بين الفقهاء، وروى عنه السلفي[5].

---

(1) ابن فرحون: الديباج المذهب، 247/2; وانظر: جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، ص71.

(2) أنظر: الديباج المذهب، 246/2.

(3) نفسه، 246/2،247.

(4) الشيال: أعلام الإسكندرية، ص98.

(5) السيوطى: حسن المحاضرة، 228/1 ; وانظر: محمد على عتاقى: الحياة العلمية بمصر فى عهد الفاطميين الأول، أطروحة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، 1983م، ص99.

ومن فقهاء السنة أيضا الذين لعبوا دوراً مهماً فى تعليم الناس التأصيل الفقهى، ورد الأحكام إلى الكتاب والسنة القاضى ابن أخت وليد أبو محمد عبدالله بن أحمد بن راشد بن شعيب البغدادى الظاهرى (ت 369هـ)، وقد صنف مصنفات عديدة كما ذكر ابن حزم، ولكن للأسف لم نعرف منها شيء، ويبدو أن خلافاً وقع بينه وبين القاضى الذهلى. كان سبباً فى أن الذهلى لم يكن ينفذ له حكماً حتى مات[1].

ومن فقهاء السنة الذين سمعوا بمصر ونشروا العلم أبو القاسم عبيد الله بن على بن الحسن بن محمد بن عمر بن حزم النخعى الكوفى الظاهرى (ت 376هـ) قيل عنه شيخ أهل الظاهر فى عصره، كان فقيها ومحدثا متفننا[2]، ومنهم القاضى أبو عمر عبيد الله بن أحمد بن الحسين بن السمسار (ت 361هـ) الذي لعب دوراً مهماً فى نشر المذهب الظاهرى السنى بمصر قبل الفاطميين وفى صدر دولتهم[3]. ومنهم الإمام الظاهرى اليسع بن عيسى الغافقى (ت 575هـ) الذي عمد إلى نشر الفقه الظاهرى، ومعاداة الفاطميين فى فكرهم ومعتقدهم بالقاهرة والإسكندرية. بل وساهم بشدة فى إسقاط دولتهم، وكان مقرئا محدثاً حافظاً نسابة مؤرخاً، له كتاب تاريخ في محاسن المغرب وصنف العديد من المصنفات، ولكن جلها للأسف مفقود، وكان من مشاهير القراء بالإسكندرية[4].

ومن فقهاء السنة أبو الحسن على بن الحسن بن الحسين بن محمد الموصلى المحدث والفقيه الشافعى (ت 492هـ)، الملقب بمسند الديار المصرية فى وقته لكثرة روايته للحديث، وكان أيضا ممن اشتهر بنشر الفقه الشافعى بمصر[5]، ومنهم عبدالله بن محمد بن يوسف الزناتى الضرير الذى كان يحضر الدروس الفقيه للحافظ السلفى فى المدرسة العادلية أو السلفية بالإسكندرية، ومنهم عبدالله بن محمد بن ملوك التنوخى الفليشى الذى سمع على

---

(1) عبدالباقى السيد: تاريخ أهل الظاهر، ص159،158.

(2) نفسه، ص159.

(3) نفسه، ص158.

(4) نفسه، ص261 ; وقد فصلنا دوره فى إسقاط الخلافة الفاطمية بكتابنا: " أهل الظاهر فى مصر الإسلامية "، والذى سيرى النور قريباً بمشيئة الله تعالى.

(5) قارن: المقريزى: أتعاظ، 24/3 ; ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، 164/5.

السلفى رسالة أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكى، وكتاب الشهاب للقاضى القضاعى، ومنهم عبدالله بن عثمان وار الكزولى كان مداوماً على دروس السلفى الفقهية فى مدرسته وقرأ عليه موطأ مالك، وعلق على ما ألقاه من كتاب الإبانة للفورانى فى الفقه الشافعى، ومنهم عبدالله بن تويت بن الوزان اللمتونى الذى قرأ على السلفى كتاب الملخص لابن القابسى، ومنهم على بن محمد بن فيد الفارسى القرطبى الذى كتب عن السلفى ألف ورقة وسمعها عليه، ومن جملة ما سمعه من السلفى السيرة النبوية لابن هشام، وكتاب المجالسة لابن مروان المالكى، وكتاب مشكل القرآن لابن قتيبة[1].

ومن أهل السنة أصحاب النسب الشريف ابن أسعد الجواني (525هـ-588هـ/1131م -1192م): وهو محمد بن أسعد بن علي بن المعمر بن عمر بن علي بن أبي هاشم الحسين نسابة بغداد، ابن أحمد نسابة بغداد، ابن علي نسابة الكوفة، ابن إبراهيم بن محمد بن الحسن بن محمد الجواني، ابن عبيد الله الزاهد، ابن الحسن الأصغر العابد، ابن علي زين العابدين، ابن الحسين بن علي بن أبي طالب; أبوعلي ابن الشريف أبي البركات سناء الملك، الحسيني العبيدلي، الجواني، المالكي، النسابة .أصله من الموصل، لكنه ينسب إلى الجوانية قرية بالقرب من المدينة المنورة، تولى نقابة الطالبيين بمصر فى عهد الحافظ الفاطمى، وبعد سقوط الدولة الفاطمية انشغل بالأنساب فى عهد الأيوبيين[2]، ومن **مؤلفاته:**

1- الشجرة النبوية والجوهرة المصطفوية (مطبوع طبعة حجرية سنة 1328هـ)
2- المقدمة الفاضلية في الأنساب (مطبوع).
3- الجوهر المكنون في القبائل والبطون (مخطوط).
4- التحفة الشريفة والهدايا المنيفة (مخطوط).
5- الأنساب وأسماء قبائل قريش والعرب أصولها وفروعها (مخطوط).
6- -طبقات الطالبيين.
7- تاج الأنساب.

---

[1] الشيال: أعلام الإسكندرية، ص142،143.

[2] العماد الاصفهانى: خريدة القصر، 1/117-119.

8- معيار النسب

9- مختصر الكلام فى الفرق بين من اسم أبيه سلام وسلام[1].

10- المنصف النفيس في نسب بني إدريس[2].

وممن شارك فى الحركة العلمية وشجعها لا سيما بالإسكندرية القاضى أبو طالب أحمد بن عبدالمجيد بن أحمد بن الحسين بن حديد بن حمدون الكنانى قاضى الإسكندرية (ت 528هـ)[3]، وقد أثنى عليه الحافظ السلفى فقال: القاضي أبو طالب هذا قل ما يرى مثله في أبناء جنسه رياسة وسياسة وفضلاً ونبلاً وكان سنياً مالكي المذهب عريق الرياسة توفي بقرب ثغر رشيد في موكب سلطاني وهو راجع من مصر فحمل إلى الأسكندرية وصلي عليه في مقبرة الديماس وحضره خلق لا يحصون كثرة ورد الى داره ودفن في بستان بناه بجنبها في جمادى الاخرة سنة تسع وعشرين ورثي بقصائد كثيرة[4]. كذلك كان لعبدالرحمن بن أحمد بن المنذر قاضى الإسكندرية (ت 568هـ) والمعروف بالأبحر دور مهم فى تشجيع الحركة العلمية لا سيما أنه كان يحضر بنفسه دروس الطرطوشى وتتلمذ عليه، وكان متمكناً فى الفقه والحديث والنحو واللغة والأدب[5].

ومن فقهاء السنة الذين نشروا الفقه والحديث فى ظل الحكم الفاطمى عبد الغني بن سعيد بن علي بن سعيد بن بشر بن مروان (ت 409هـ)، الإمام الحافظ الحجة النسابة، محدث الديار المصرية، أبو محمد الأزدي المصري، صاحب كتاب " المؤتلف والمختلف "[6]، ولد سنة 332هـ. وكان من كبار الحفاظ. قال البرقاني: سألت الدارقطني لما قدم من مصر :هل رأيت في طريقك من يفهم شيئا من العلم ؟ قال: ما رأيت في طول طريقي إلا شاباً بمصر

---

(1) الصفدى: الوافى بالوفيات، 202/2 ; ابن حجر: لسان الميزان، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة فى الهند، حيدر آباد الدكن، ط1، 1330هـ، 74/5-76.

(2) ابن العديم: بغية الطلب فى تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1328/3.

(3) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 151/3.

(4) أنظر: معجم السفر، 54/1.

(5) عبدالحميد حمودة: الحضارة الإسلامية، ص213.

(6) الذهبى: سير أعلام النبلاء، 268/17.

يقال له: عبد الغني، كأنه شعلة نار. وجعل يفخم أمره، ويرفع ذكره. وقال أبو الفتح منصور بن علي الطرسوسي: أراد أبو الحسن الدارقطني الخروج من عندنا من مصر، فخرجنا معه نودعه، فلما ودعناه بكينا، فقال لنا: تبكون وعندكم عبد الغني بن سعيد، وفيه الخلف وقد جمع عبد الغني جزءً بين فيه أوهام كتاب " المدخل إلى الصحيح" للحاكم ، يدل على إمامته وسعة حفظه. قال هو عنه: لما رددت على أبي عبد الله الحاكم "الأوهام التي في المدخل " بعث إلي يشكرني، ويدعو لي، فعلمت أنه رجل عاقل[1].

وتتضح ملكة الحفظ للحديث عند الأزدى من رواية محمد بن علي الصوري:حيث قال: قال لي الحافظ عبد الغني: ابتدأت بعمل كتاب " المؤتلف والمختلف "، فقدم علينا الدارقطني، فأخذت عنه أشياء كثيرة منه، فلما فرغت من تصنيفه، سألني أن أقرأه عليه ليسمعه مني، فقلت: عنك أخذت أكثره. قال: لا تقل هكذا، فإنك أخذته عني مفرقا، وقد أوردته فيه مجموعا، وفيه أشياء كثيرة أخذتها عن شيوخك. قال: فقرأته عليه.

ويتأكد أثر الأزدى فى تعليم الحديث من قول: أحمد بن محمد العتيقي: كان عبد الغني إمام زمانه في علم الحديث وحفظه، ثقة مأمونا، ما رأيت بعد الدارقطني مثله.

ويبين الذهبى السبب فى اتصال الأزدى بالفاطميين الشيعة بقوله: اتصاله بالدولة العبيدية كان مداراة لهم، وإلا فلو جمح عليهم، لاستأصله الحاكم خليفة مصر، الذي قيل: إنه ادعى الألوهية. وأظنه ولي وظيفة لهم، وقد كان من أئمة الأثر، نشأ في سنة واتباع قبل وجود دولة الرفض، واستمر هو على التمسك بالحديث، ولكنه دارى القوم، وداهنهم، فلذلك لم يحب الحافظ أبو ذر الأخذ عنه" [2].

ولا شك أن جنازة عبد الغني الأزدى العظيمة التى تحدث بها الناس، ونودي أمامها: هذا نافي الكذب عن رسول الله -ﷺ [3]، تؤكد على أنه كان أحد أرباب المدرسة المصرية فى الحديث، وصاحب تأثير كبير فى الحركة الفكرية بمصر وخارجها.

---

[1] الذهبى: سير أعلام النبلاء، 270/17.

[2] أنظر: سير أعلام النبلاء، 273/17

[3] أنظر: الذهبى: سير أعلام النبلاء، 273/17.

ومن رجال الحديث السنة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر القفطى (ت 362هـ)[1]،ومنهم الحسن بن على بن الحسن بن محمد بن على بن الحارث المحدث والزاهد الأسوانى (ت 455هـ)[2]، ومنهم أبو عبدالله الرازى محمد بن أحمد بن إبراهيم المشهور بابن الخطاب (ت 525هـ) صاحب السداسيات، وأحد عدول الإسكندرية، ومسند الديار المصرية[3]، ومنهم أبو الحجاج يوسف بن محمد بن على القروى كان حريصاً على دروس المدرسة السلفية فى الفقه والحديث، وكتب عن السلفى شيئاً يسيراً من الأمالى الحديثية التى كان يمليها، وانقطع خبره سنة 560هـ[4]، ومنهم عبدالله بن الفضل بن دليل الحضرمى المالكى أحد قضاة الإسكندرية، كان ملازماً للسلفى فى مدرسته، ويراجعه فى المسائل التى يتشكك فيها، وقرأ عليه شرح البخارى لابن بطال قراءة دراية لا رواية[5]، ومنهم على بن عطية بن المحسن الطبيبى المصرى الذى قرأ على السلفى كثيراً من مصنفات الحديث، ومن جملتها مسند الموطأ لأبى القاسم الجوهرى[6]، ومنهم من نشروا علوم الحديث بالإسكندرية كعبد الله بن عبد الرحمن العثماني (ت 572)، من ولد عثمان بن عفان، كان واسع الباع في علم الحديث، كثير الرواية، متصرفا في النظم والنثر، ومنهم الحافظ أبو طاهر عماد الأصفهانى (ت 576هـ) الذى انتهى إليه علو الإسناد بالإسكندرية، وأحد أبرز المحدثين بقوانين الرواية، ومنهم مسند الإسكندرية فى الحديث أبو القاسم عبدالرحمن بن مكى بن حمزة بن موقا الأنصارى (ت 579هـ)[7].

كذلك بز في مصر فى العصر الفاطمى طائفة من المفسرين والقراء السنة، نذكر منهم محمد بن على بن أحمد بن محمد الأدفوى (388هـ) العالم الزاهد المقرىء والمفسر والنحوى،

---

(1) الأدفوى: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م، ص73.

(2) نفسه، ص206،207.

(3) السيوطى: حسن المحاضرة، 1/212.

(4) السلفى: معجم السفر، ص456.

(5) السلفى: معجم السفر، ص145.

(6) الشيال: أعلام الإسكندرية، ص142.

(7) السيوطى: حسن المحاضرة، 1/200.

الذى انفرد بالإمامة فى دهره بقراءة نافع مع سعة علمه وبراعته، صنف فى التفسير: " كتاب الاستغناء" قيل فى مائة مجلد، وكان بارعاً فى إعراب القرآن وتفسير معانيه على وجوه عدة[1]، ومنهم على بن إبراهيم بن سعد الحوفى (ت 430هـ)، والذى صنف كتاباً فى التفسير وسمه بـ: " البرهان فى تفسير القرآن" فى ثلاثين مجلدا[2]، ومنهم إسماعيل بن محمود بن أحمد المحلى (ت 433هـ)، خطيب جامع المحلة، والذى تصدر للإقراء[3]، ومنهم أبو العبّاس أحمد بن هاشم المصري (ت 445هـ)، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين، واشتهر بتدريس علم القراءات، ومنهم الحسن بن خلف القيرواني (ت514هـ)، ومن أشهر قراء الدلتا فى العصر الفاطمى عبدالرحمن بن أبى بكر بن عتيق بن خلف بن الفحام الصقلى (ت 516هـ) صاحب كتاب " التجريد فى القراءات "، والذى انتهت إليه رئاسة القراء بالإسكندرية حتى قيل عنه: " لم ير أعلم بالقراءات منه لا بالمشرق ولا بالمغرب"[4]، ومنهم أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى الظاهرى المقرىء (ت 562هـ)[5]، وقد ذهب جماعة من المؤرخين إلى نسبته للمذهب الشافعى كالسبكى[6]; إلا أننا رجحنا ظاهريته فى كتابنا تاريخ أهل الظاهر بناءً على قول الحافظ الذهبى: " كان من غلاة السنة وأهل الأثر"[7]، وإنما قال الذهبى "وغلاة السنة "لأنه كثيراً ما يشير إلى أن الظاهرية هم أهل السنة مفهماً بذلك أن اعتقاده موافق لأهل الظاهر[8]، وقد وصفه الذهبى بقوله: الإمام المقرىء الزاهد الأثرى الواعظ، كان له تلامذة وأصحاب وله شعر كثير مدون وكلام فى السنة[9]، ونجح فى تقويم بعض أفعال القراء

---

(1) السلفى: معجم السفر، ص553-555.

(2) ياقوت: معجم الأدباء، 221/12 ; وانظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، 301/3.

(3) الجزرى: طبقات القراء، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط1، 1923م، 10/1.

(4) الجزرى: طبقات القراء، 274/1.

(5) أنظر:الذهبى، سير أعلام النبلاء، 454/20 ; ونفس المؤلف، العبر في خبر من غبر، ج3 أحداث سنة سبع وثمانين وخمس مائة.

(6) أنظر: طبقات الشافعية الكبرى، 65/4.

(7) أنظر: العبر في خبر من غبر، ج3 أحداث سنة سبع وثمانين وخمس مائة.

(8) اليافعى: مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت، ط2، 1390هـ/1970م، 434/3 ; وانظر عبدالباقى السيد: تاريخ أهل الظاهر، ص500،501.

(9) أنظر: سير أعلام النبلاء، 454/20.

ومعلمى المكاتب، إذ منع القراء من القراءة فى الأسواق لأنهم كانوا يتكسبون من ورائها، وحظر على معلمى المكاتب أن يمسحوا الآيات القرآنية التى فى الألواح إلا فى آنية جديدة، مع إلقاء ما يمحى فى البحر حرصاً على تبجيل القرآن الكريم[1]، ومن أشهر القراء سالم بن إبراهيم بن خلف بن عبدالله الأموى السكندرى (ت 564هـ)[2]، وممن تتلمذ على ابن الفحام فى القراءات عبدالرحمن بن خلف الله الإسكندرانى (ت 572هـ)، والذى تصدر للإقراء وتعلم الناس القراءة عليه[3]، وممن نزح إلى الإسكندرية وتتلمذ على ابن الفحام فى القراءات مقاتل بن عبدالعزيز بن يعقوب (ت 579هـ)[4]، ومنهم محمد بن عمر بن مالك بن جعونة المعافرى الذى درس بالمدرسة العوفية، وأصبح من المقرئين المشهورين[5].

ولابد مما ليس منه بد أن نشير إلى أثر مدرسة القراءات السنية بمصر فى العصر الفاطمى على العديد من البلدان الإسلامية، حيث كانت قبلة لثلة من الدارسين الذين تضلعوا بعد ذلك وأصبحوا من المبرزين فى القراءات من أمثال مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار، الذى ولد بمدينة القيروان سنة 355هـ، وماتت والدته من نفاسه ليلة الشك من رمضان، يوم السابع من ولادته.

سافر مكى بن أبي طالب إلى مصر فى العام 367هـ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فقرأ فيها القرآن والحساب[6] ثم رجع إلى القيروان، واستظهر القرآن بعد خروجه من قراءة الحساب وغيره من الأدب، وقرأ على أبي الطيب، ثم رجع إلى مصر مرة أخرى سنة 376هـ وقيل سنة 377هـ فقرأ بها القراءات على أبى الطيب عبدالمنعم بن عبيد الله بن غلبون[7]، ثم عاد إلى

---

[1] على صافى: ابن الكيزانى، ص49.

[2] الجزرى: طبقات القراء، 1/300.

[3] السيوطى: حسن المحاضرة، 1/284.

[4] الجزرى: طبقات القراء، 2/308.

[5] نفسه، 2/218.

[6] الجزرى: طبقات القراء، 2/308.

[7] الضبى: بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربى،1967م، ص 469 ترجمة 1368; وانظر: القفطى: إنباه الرواة على أنباء النحاه، تحقيق محمد أبوالفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1401هـ/1981م،3/313،314 ; الجزرى: طبقات القراء، 2/309

مصر ثالثة في سنة 382 هـ ليتلقى ما بقي عليه من القراءات[1]، ولم يرغب في الاستقرار بها لما رأى من تسلّط المذهب الإسماعيليّ على أهلها وقمع المعارضين للنظام الإسماعيلى القائم، ومن ثم رجع إلى القيروان في سنة 383 هـ، وأقام بها يقرئ إلى أول سنة 387 هـ [2]، ثم خرج إلى مكة فأقام يقرئ إلى سنة 390 هـ، وحج أربع حجج متوالية نوافل، ثم قدم من مكة في سنة إحدى وتسعين إلى مصر، ثم قدم من مصر إلى القيروان في سنة اثنتين وتسعين، ثم قدم إلى الأندلس في رجب من سنة ثلاث وتسعين، ثم جلس للإقراء بجامع الزاهرة، ثم انتقل منه إلى جامع قرطبة، فانتفع على يديه جماعات من الناس، وعظم اسمه في البلد إلى أن توفى فى العام 437هـ [3].

وتجدر الإشارة إلى أن تعدد رحلات مكى بن أبى طالب إلى مصر يؤكد على أهمية مصر بالنسبة له فى تحصيل العلم، وفى نشره، وهو ما يدفعنا إلى القول بأن الرجل بلا شك كما تأثر بمدرسة بعلماء السنة المصريين. فقد كانت له تأثيرات عليهم وعلى زملائه من الخلال الحوارات والمناقشات الخاصة بالقراءات وغيرها.

وقد كان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب أثره في ظهور طائفة كبيرة منهم في مصر جمعت بين العلوم الشرعية والعقلية، فاشتهر من المؤرخين في العصر الفاطمي أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي، الذى اتصل بخدمة الخليفة العزيز فولاه خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه وتوفي سنة 388 هـ في أيام الحاكم بأمر الله. ومن مصنفاته كتاب "**الديارات**"، أورد فيه أخباراً طريفة عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر وما قيل في كل منها من الأشعار[4].وهذا الكتاب كتاب بلدان وتاريخ وتراجم وأدب، توسع فيه صاحبه، فكتب عن ما يزيد على خمسين ديراً، زال أكثرها من عالم الوجود، وكان معظمها في العراق، وبعضها في الشام ومصر والجزيرة، فالكتاب طرفة أدبية فاخرة، فيه من روعة الأسلوب، وحلاوة النكتة، ولطف

---

(1) ياقوت الحموى: معجم الأدباء، 168/19.

(2) القفطى: إنباه الرواة، 314/3.

(3) رجب عبدالجواد: معجم علماء اللغة والنحو فى الأندلس، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2004م، ص485.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 426.

النادرة، ما تنشرح به النفس، ويرتاح له الخاطر، وهو مصدر من مصادر الشعر العربي، حوى بين دفّتيه قصائد وأبياتاً، لو أُفردت لقام منها ديوان لا يقل في جملته عن ألف وخمسمئة بيت لشعراء يبلغون نيفاً وسبعين شاعراً، ضاعت دواوين أكثرهم.

لم يكن الشابشتى مؤرخاً وشاعراً وأديباً فحسب بل كان فقيهاً وزاهداً، ومن ثم فإلى جانب كتابه الديارات، وديوانه الشعرى، وكتاب مراسلات بينه وبين بعض أدباء عصره، وجدنا له مصنفات تؤكد نزعته الفقهية والزهدية منها: كتاب مراتب الفقهاء، وكتاب التوقيف والتخويف، وكتاب الزهد والمواعظ، وكتاب اليسر بعد العُسْر، وهو وإن كان مفقوداً فيؤخذ من عنوانه أنه يشبه فى موضوعه كتاب الفرج بعد الشدّة للقاضي التنوخي (ت 384هـ).

ومن أعلام المؤرخين السنة الذين جمعوا بين الفقه والتاريخ والحديث أبو القاسم عبدالمحسن بن عثمان بن غنايم الخطيب (ت 413هـ)، وله كتاب فى فضائل تنيس وسمه بـ: " العروس فى فضائل تنيس"[1]، ومنهم أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (ت 454هـ) الذي ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري، وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي. وقد ولي القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وأوفده هذا الخليفة سفيراً إلى تيودورا إمبراطورة الدولة البيزنطية سنة 447 هـ لعقد اتفاق بينها وبين مصر كما فصلنا القول عنه بالفصل الأول من هذه الدراسة. وللقضاعى عدة مصنفات في الفقه والحديث والتاريخ، منها "مناقب الإمام الشافعي وأخباره"، وكتاب في خطط مصر سماه "المختار في ذكر الخطط والآثار" يتضمن تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره. وكان هذا الكتاب عوناً للمقريزي على كتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، وقد اطلع عليه كل من القلقشندى[2]، المقريزى[3]، والسيوطى[4] ونقلوا عنه، وقد وصلنا منه شذرات وفقرات

---

[1] السخاوى: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ص156.

[2] أنظر: صبح الأعشى، 3/311،310،299، 326.

[3] أنظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، 1/207،206، 230.

[4] أنظر: حسن المحاضرة، 1/70.

نقلها المؤرخون المتأخرون كالمقريزى[1] وترجع أهمية كتاب القضاعي إلى أنه آخر كتاب ورد لنا منه وصفا لخطط مصر القاهرة قبل أن تتغير معالمها خلال فترة الشدة العظمى التي أصابت مصر في عصر المستنصر بين سنوات 457-465هـ /1064-1072م.

ويبدو مما نقله المقريزى والقلقشندى من كتاب القضاعي أنه كان يتناول خطط مصر القاهرة وآثارها وتاريخها منذ الفتح الاسلامي في إفاضة وإسهاب، وأنه نقل عن ابن عبد الحكم، والكندي، وابن زولاق، وأضاف إلى ذلك ما وصلت إليه أحوال القاهرة في زمانه. ويذكرالسيوطي فيما كتبه عن فتح مصر أنه نقل رواية الفتح عن كتاب الخطط للقضاعي[2]. ويدل ذلك على أن هذا الكتاب قد فقد في عصر متأخر.

ومن أهم كتب القضاعى «شهاب الأخبار»، وقد جمع فيه ألف حديث نبوي من الحكمة في الوصايا والآداب والمواعظ والأمثال، وجعلها مسرودة يتلو بعضها بعضًا، محذوفة الأسانيد، مبوبة أبوابًا على حسب تقارب الألفاظ، وقد ختم هذا الكتاب بأدعية نبوية مأثورة، وهو بذلك الكتاب قد سبق النووي في كتابه الشهير رياض الصالحين بأكثر من قرنين من الزمان، وقد جمع أسانيد كتاب الشهاب في كتاب آخر أطلق عليه العلماء «مسند الشهاب؟ أو مسند القضاعي وهو كتاب مشهور، وله أيضا «الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء» وهو تاريخ مختصر من مبتدأ الخلق إلى زمانه في مجيليد ويبدو أنه مختصر لكتاب القضاعى الكبير المعروف بـ(تاريخ القضاعي)، وعيون المعارف، ومعجم لشيوخه، وتاريخ مصر (مفقود)، ونسب النبى محمد، وخلاصة وافية للمعلمين_ قائمة بمصادر الحديث التي استخدمها القضاعي(مفقود)، وتفسير القرآن فى عشرين مجلدا (مفقود)، ودرة الواعظين وذخر العابدين، ودقائق الأخبار وحدائق الاعتبار، ودستور معالم الحكم، مجموعة من أقوال الإمام علي[3].

---

(1) أنظر: المواعظ والاعتبار، 1 / 122، 125، 206، 207، 247، 287، 298، 230، 231، 343، 2;346/ 137، 142، 146، 161، 178; القلقشندى: صبح الاعشى 3 / 294، 299، 302، 310، 311، 321، 326، 338.

(2) أنظر: حسن المحاضرة،1 /70.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1/585 ; السبكى: طبقات الشافعية، 3/63; السيوطى: حسن المحاضرة، 1/188 ; عنان: مؤرخو مصر، 59،60.

ومنهم أبو الفتح المصري أحمد بن مطرف بن إسحاق القاضى (ت 413هـ)، كان في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى، وتولى قضاء دمياط، وله مصنفات في الأدب، منها: كتاب النوائح، كتاب كبير في اللغة، ورسالة في الضاد والظاء كتب بها إلى الشريف أبي الحسن محمد بن القاسم الحسيني عامل تِنِّيس[1]; ومنهم الحوفي النحوي اللغوي، وهو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد (ت 430هـ) أصله من حوف بلبيس[2]، كان من أئمة الأدب واللغة في عصره. وألف كتباً في النحو والأدب وغيرهما، منها: الإرشاد لطريق خبر العباد والعباد[3]، وكتاب إعراب القرآن فى عشر مجلدات، ومصنفاً كبيراً فى النحو، عنى به النحويون، واستوفى فيه العلل والأصول على حد قول القفطى[4]; ومن النحاة من أهل السنة في الإسكندرية الحسن بن جعفر بن حسن بن عبدالرحمن مروان السكندرى الذي صنف كتاباً في النحو سماه المذهب، وكان موجوداً فى سنة 517[5]; ومن أرباب اللغة والنحو على بن عبدالجبار بن سلامة بن عبدون الهذلى التونسى (ت 519هـ)، كانت له قدرة فائقة على نظم الشعر وله قصائد أجابه عنها الحافظ السلفى، ومن جملة شعره قصيدة فى الرد على ابن الراوندى فى أحد عشر ألف بيت على قافية واحدة[6].

ونبغ من شعراء السنة بالإسكندرية على بن عياد السكندرى أحد شعراء الوزير السنى أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى، والذى ذم الفاطميين بقصيدة كانت سبباً فى مقتله. إذ أشار الخليفة الحافظ الفاطمى إلى غلمانه بعد أن أحضر ابن عياد أن ينهالوا عليه بالنعال حتى لفظ أنفاسه[7]. بل تسبب بيت من أبيات هذه القصيدة فى صرف قاض من القضاة عن منصبه

---

(1) ياقوت الحموى: معجم الأدباء، 5/63، 64 ; وانظر: الصفدى: الوافى، 8/181.

(2) ابن العماد: شذرات الذهب، 3/247 ; وانظر: أحمد كامل محمد صالح: مصر بين المذهب السنى والمذهب الإسماعيلى فى العصر الفاطمى، أطروحة دكتوراة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1987م، ص193.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 3/300.

(4) أنظر: إنباه الرواة، 2/220 ; ياقوت الحموى: 12/221،222 ; السيوطى: حسن المحاضرة، 1/206.

(5) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، 3/212.

(6) الصفدى: الوافى، 21/145.

(7) الزركلى: الأعلام، 5/133.

وقتله لتعلقه بهذا البيت وابتهاجه به[1]، ومنهم أبو منصور بن عبدالله بن خلف الجذامى السكندرى المشهور بظافر الحداد (ت 529هـ)، وقد مدح الوزير السنى الأفضل بن بدر الجمالى فأكبره الأفضل وقدمه على أقرانه، وسكن ظافر بجوار الوزير فى الفسطاط[2].

كذلك نبغ في العصر الفاطمي بعض العلماء الذين جمعوا بين العلوم الشرعية والعقلية من أمثال أبي علي محمد بن الحسن بن الهيثم السنى المذهب (ت 430هـ)[3] ، أصله من البصرة، ثم أتى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة في توزيع مياه النيل، إذ ورد عن ابن الهيثم انه كان يقول: "لو كنت بمصر لعملت بنيلها عملاً يحصل النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان"[4] فوصل قوله هذا إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي دعاه إلى مصر لتنظيم فيضانات النيل، وأمده بما يريد للقيام بهذا المشروع، وهي مهمة التي تطلبت حينئذ بناء سد في الموقع الحالي لسد أسوان، وبعد أن تفقّد الموقع أدرك عدم جدوى هذا المشروع لضعف الإمكانات المتاحة في ذاك الوقت، وخوفًا من غضب الخليفة، إدعى الجنون، فاحتجز بمنزله من عام 401هـ/1011م حتى وفاة الحاكم في عام 411هـ/1021م، وخلال تلك الفترة، كتب كتابه الأشهر المناظر[5])

وخلال فترة وجوده في القاهرة، ارتبط ابن الهيثم بالجامع الأزهر، الذي كان بمثابة جامعة المدينة، وكان ابن الهيثم باعتباره سنياً يحرص على الدفاع عن مذهبه ضد المخالفين،وله مصنفات دينية تطرق في بعضها للنبوة ووضع نظامًا ذا معايير فلسفية لمقارعة المكذبين في زمنه، وبعضها خاص بتحديد إتجاه القبلة بالحساب وأسماه " كيفية حساب اتجاه القبلة"،

---

(1) عبدالحميد حمودة: الحضارة الإسلامية، ص229.

(2) الأصفهانى: فريدة القصر، 15/2 ; وانظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، 91/4 ; حسين نصار: ظافر الحداد، ص45 وما بعدها ; صلاح الدين حسن على: مدارس الشعر فى مصر فى العصر الفاطمى، أطروحة دكتوراة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، 1977م، ص344،345.

(3) مصطفى النشار: تاريخ العلم عند العرب، دار المسيرة، عمان – الأردن، 2011م، ص97.

(4) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء، ص1556.

(5) القفطى: أخبار العلماء، ص115 ; وانظر: مصطفى عبدالرازق: الاجتماع التخليدى لذكر الحسن بن الهيثم، ص4.

وهناك ردود له على المعتزلة وعلى الجبرية والمنجمين كمقالته فى الرد على أبى هاشم زعيم المعتزلة، ورسالته فى تباين مذهبى الجبريين والمنجمين، ورسالته فى نقد جواب مسألة سئل عنها بعض المعتزلة بالبصرة[1]. وبعد انتهاء فترة إقامته الجبرية في منزله، كتب عشرات الأطروحات الأخرى في الفيزياء والفلك والرياضيات، وأصبح ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة فى عصره وبعده، وخاصة في الطبيعيات والرياضيات. وقد ألف نحو مائتي كتاب في الرياضة والطبيعة والفلسفة والفلك والشريعة، ولم يزل مكباً على التأليف حتى توفي[2].

واشتهر من الأطباء والفلاسفة أصحاب النزعة الفقهية أبو الحسن علي بن رضوان (ت 453هـ)، ولد بالجيزة، ونشأ فقيراً معدماً، وأصبح بفضل جِدِّه واجتهاده رئيس الأطباء في البلاط الفاطمي. وتدل الكتب التي ألفها في الطب على سعة فكره واطلاعه. كما أن له كتباً في الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة[3]. وكان مجدداً في صناعته، فلم يعمد في مؤلفاته إلى نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار. وظل طيلة حياته في كفاح وعمل متصل إلى أن توفي في خلافة المستنصر بالله الفاطمي[4].

ومن مصنفاته الدينية التى شغل نفسه بها لعلاج بعض القضايا أو للرد على بعض ما أثير فى مجتمعه. رسالة فى بقاء النفس بعد الموت، ومقالة بعث نبوة محمد من التوراة والفلسفة، ومقالة فى حدث العالم، ومقالة فى اكتساب الحلال من المال، ومقالة فى اعتذاره عما ناقض به المحدثين، ومقالة فى توحيد الفلاسفة وعبادتهم، وكتاب فى الرد على الرازى فى العلم الإلهى وإثبات الرسل[5].

وبالنظر فى كتاب دفع مضار الأبدان بأرض مصر لعلى بن رضوان رئيس أطباء مصر نجد صاحبه يوجه النقد الشديد لأهل مصر، محاولاً الربط بين العيوب التى ذكرها فى كتابه

---

(1) دولت عبدالرحيم: الاتجاه العلمى والفلسفى عند ابن الهيثم، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2005م، ص34.

(2) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء، ص552-560 ; وانظر: أحمد أمين: ظهر الإسلام، 1/ 204.

(3) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 2/ 105.

(4) ابن القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 443، 444.

(5) أحمد عرفات القاضى: الفيلسوف المصرى على بن رضوان، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2006م، ص58،59.

بالظروف المناخية والجغرافية للبلاد، ومن ثم جاء فصله الذى عنونه بـ " اختصاص المدينة الكبرى بمصر فى هوائها وجميع أحوالها" فريداً فى بابه كأحد أفضل فصول الكتاب[1]، ويمكن أن نميز بين نقطتين فيما يخص النقد عند ابن رضوان بشأن المصريين: الأولى نقده الذاتى للمزاج المصرى بصفة عامة، والثانى نقده للمشتغلين بصناعة الطب باعتباره أحد من مارس هذه المهنة.

وعن نقده للمزاج المصرى يوضح أن مشاكلة أبدان المصريين لطبيعة أرضها هو السبب الأول والأعظم فى أن صارت أرض مصر على ما هى عليه من سخافة الأرض وكثرة العفن ورداءة الهواء والماء. إلا أن هذه الأشياء ليست تحدث فى أبدان المصريين استحالة محسوسة إذ جرت على عادتها من أجل إلف المصريين لهذه الحال ومشاكلة الأبدان لها[2].

وبعد أن يوضح أن أبدان المصريين تلائم أرضها يبين أثر ذلك فى النبات والحيوان بقوله: "فإن كل ما يتولد بأرض مصر من النبات والحيوان مشابه لما عليه مزاج مصر فى سخافة الأجسام وضعف القوى وكثرة التغير وسرعة الوقوع فى الأمراض وقصر المدد "[3]، ويدلل على ذلك بالحنطة التى يسرع إليها التغيير ويرى أنها تشبه أبدان المصريين فيقول: "كالحنطة التى بمصر فإنها وشيكة الزوال، وسريع إليها العفن فى المدة اليسيرة ولا تظن أن أبدان الناس وغيرهم تخالف ما عليه الحنطة من سرعة الاستحالة، وكيف لا يكون الأمر كذلك وأبدانهم مبنية من هذه الأشياء"[4].

ويتحدث ابن رضوان عن صفات أهل كل منطقة بمصر فيقول: "وأيضا فأهل الريف أكثر حركة ورياضة من أهل المدن، ولذلك هم أصح أبداناً لأن الرياضة تصلب أعضاءهم وتقويها، وأهل الصعيد أخلاطهم أرق، وأكثر دخانية وتحللا وسخافة لشدة حرارة أرضهم من أهل اسفل الأرض. وأسفل أهل الأرض يكون أكثر استفراغ فضولهم بالبراز والبول لفتور الحرارة فى أرضهم واستعمالهم الاشياء الباردة الغليظة كالقلقاس"[5]، وإذا ما تحدث

(1) أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص46.

(2) أنظر: دفع مضار الأبدان، تحقيق عادل جمال، ص5.

(3) نفسه، ص5.

(4) نفسه، ص5،6.

(5) نفسه، ص5،6.

عن أخلاق المصريين فإنها ينتقد ما رآه منهم مع استثنائه فئة وصفها بحسن الخلق فيقول فى نقده أولا: " فأما أخلاق المصريين فبعضها شبيه ببعض. ولأن قوى النفس تابعة لمزاج البدن، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر والجلد، كذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء إلى شيء. والدعة والجبن والقنوط والشك وقلة الصبر والرغبة فى العلم وسرعة الحزم والحسد والنميمة والكذب والسعى إلى السلطان وذم الناس، وبالجملة الشرور الدنيئة التى تكون من دناءة النفس "[1]، ويصف ابن رضوان حالة بمصر وصفاً شبه دقيق بقوله: " وإن كانت أسعارها مرتفعة فالمكاسب فيها كثيرة "[2]، وينتبه ابن رضوان إلى أن بعض أهالى البلدان أخذوا كلامه عن مصر مأخذ السب والطعن فيها فيرد عليهم بقوله: " ليس الأمر على ما ظننت، وذلك أن شرور المصريين دنية خسيسة فعلاجها سهل وعاقبة أمرها على الأكثر محمودة، وليس يوقع أهلها فى المهالك العظام "[3].

وإذا حاولنا تقييم كلام ابن رضوان السابق فيمكننا القول أن جل كلامه يتسم بالموضوعية والأمانة. إذ إن الرجل أدرك طبيعة المزاج المصرى فى فترة حرجة وقلقة كان يعيشها المصريون فى ظل الحكم الفاطمى نتيجة لعدم الاستقرار فى فترات ليست بالقلية. فضلا عن طبيعة استبداد نظام الحكم وتسلطه على الناس، حتى فى المذهبية الدينية حيث إرغام الناس على تغيير مذهبهم السنى إلى المذهب الإسماعيلى، وليس أدل على ذلك من أن أحد الرعية ضرب بمصر وطيف به لأجل أنهم وجدوا عنده كتاب الموطأ للإمام مالك[4] بل إن الظاهر الفاطمى (411هـ- 427هـ) أمر فى العام 416هـ بإخراج فقهاء المالكية وغيرهم من الفسطاط، وأمر الدعاة الفاطميين بتحفيظ الناس كتاب دعائم الإسلام لداعى الدعاة، ومختصر الوزيرى[5]، ويكفى للتدليل على طبيعة الاستبداد أن الحسن ابن الهيثم لما وقع الخطأ فى الولاية التى تولاها فى عهد الحاكم الفاطمى ادعى الجنون والخيال مخافة القتل، وظل على

---

(1) أنظر: دفع مضار الأبدان، تحقيق عادل جمال، ص8.

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) نفسه، ص36.

(4) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 31/2.

(5) المقريزى: المواعظ، 355/1.

هذه الحال حتى مات الحاكم فأظهر العقل[1]، ولعل التوتر والقلق يتضح أكثر إذا علمنا أن ابن رضوان عاصر الظاهر الفاطمى والذى منع الناس فى عهده من ذبح الأبقار لقلتها وكثر الخوف فى الخلق لتحدث رجال الدولة بمصادرة التجارة، وصاح الناس بالظاهر: الجوع الجوع يا أمير المؤمنين، وكثر طمع العبيد ونهبهم حتى نودى بأن من تعرض له أحد من العبيد فليقتله[2].

ويتعدى ابن رضوان نقده للمزاج المصرى إلى نقده لفئة الأطباء التى ينتسب إليها فى إطار ما يسمى بالنقد الذاتى، وفى محاولة منه لتقويم بعض المفسدين من الأطباء فنراه يحدد للطبيب كى يكون صاحب معرفة ودراية أن يحيط كنهاً بخمسة وعشرين شيئا إلى جانب جزئيات اخرى... ويسرد الخمسة والعشرين شيئا أو ضمانا بدءً من مزاج البلد حتى ينتهى إلى آخر النقاط[3]، ويمضى ابن رضوان فى نقده مستنفراً همم الأطباء بمصر حيث يذكر أنه لا يعرف من الأطباء من يلتزم بالضمانات الخمسة والعشرين التى لابد منها لمن يمارس الطب ويعالج المرضى، ويذكر أيضا أنه لا يعرف بالقاهرة من لديه الخبرة الكافية بمزاج أهل مصر فلا عن غيره من أهل البلاد الأخرى، ويشير إلى ما وقع فيه ابن الجزار –على علو كعبه وتمكنه من صناعة الطب – من أخطاء حينما أراد التحدث عن مزاج أهل مصر وشرح حالها[4].

ويرى ابن رضوان أن الطبيب الجاهل ليس أقل عذاباً فى الآخرة من اللصوص وقتلة الأنفس فيقول محذرا بعض من لا علم له بصناعة الطب ومع ذلك يصر على ممارستها: " وليست عقوبة الجاهل فى الآخرة بصغيرة لكثرة ما يدخل على الناس من المضار بل عذابه أزيد كثيرا من عذاب غيره من اللصوص وقتلة الأنفس "[5]. بل ينفذ ابن رضوان فى نقده وتقويمه للأطباء إلى أمر مهم جدا وهو تجنب الطبيب كل ما من شأنه أن يشغله عن التضلع فى صناعة الطب فيقول: "فإياك أيها الطبيب إياك الاشتغال من صناعتك بلذات البهائم من

---

(1) القفطى: أخبار العلماء، ص115.

(2) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 2/ 30،31.

(3) أنظر: دفع مضار الأبدان، ص21،22.

(4) أنظر: دفع مضار الأبدان، ص22.

(5) نفس المصدر والصفحة.

الأكل والشراب والنكاح وجمع المال والمفاخرة وحب الصلف والمركوب والملبوس وغير ذلك من الشاساء التى يتفاخر بها، وتموه على العوام بمخالطة ذوى اليسار وتطويل اللحية والشيب فإن الاشتغال بذلك كله يعوقك عن التخرج فى صناعة الطب"[1].

ومن جملة الأطباء والمناطقة من أهل السنة أصحاب النزعة الفقهية الشيخ أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه بن يوسف، الإسرائيلي الأصل، الذى قرر له الوزير المأمون لما قدم من الأندلس وصار ضيف الدولة، جاراً وكسوة شتوية وعيدية ورسوماً، وأقطعه داراً بالقاهرة، وكتب له منشوراً يؤكد له فيه الحرص على تعليم الطب ومداواة الناس، وهذا نص المنشور كما ورد عند المقريزى: ولما كان من أشرف ما طرزت السيرة بقدره، وأنفس ما وشحت الدول بجميل أثره، تخليد الفضائل وإبداء ذكرها، وإظهار المعارف وإيضاح سرها، لا سيما صناعة الطب التي هي غاية الجدوى والنفع، وورود الخبر بأنها قرينة إلى الشرع. لقوله ﷺ: العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان خرج أمر سيدنا ومولانا لما يؤثره بعلو همته من إنماء العلوم وإشهارها، واختصاص الدولة الفاطمية بإحياء الفضائل وتجديد آثارها، ليبقى جمال ذلك شاهداً لها على مر الأيام، متسقاً بما أفشاه لها من المآثر الجمة والمفاخر الجسام، لشيخنا أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه، أيده الله، لصرف رعايته إلى شرح كتب أبقراط التي هي أشرف كتب الطب وأوفاها، وأكثرها إغماضا وأبقاها، وإلى التصنيف في غير ذلك من أنحاء العلوم، مما يكون منسوباً إلى الأوامر العالية، ورسم التوفر على ذلك والانتصاب له، وحمل ما يكمل أولاً أولاً إلى خزائن الكتب، وإقراء جميع من يحضر إليه من أهل هذه الصناعة، وعرض من يدعيها واستشفافه فيما يعانيه; فمن كملت عنده صناعته فليجره على رسمه، ومن كان مقصراً فليستنهضه. واعتمدنا عليه في ذلك لكونه مميزاً في البراعة في العلوم متصرفاً في فنونها، مقدماً في بسطها وإظهار مكنونها، ولأنه يبلغ الغرض المقصود في شرح هذه الكتب ويوفى عليه، ويسلك أوضح السبل وأسدها إليه، وفي جميع ما شرع له. فليشرع في ذلك مستعيناً بالله، منفسح الأمل بإنهاضنا له، وجميل رأينا فيه، بعد ثبوته في الدواوين إن شاء الله تعالى. وكتب في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة.

[1] أنظر: دفع مضار الأبدان، ص23.

فانتصب لطالبي علم الطب وأقبل أطباء البلدين إليه، واجتمع في أيدي الناس من أماليه كثير، وجعل له يومين في الجمعة يشتغل فيهما، ويتوفر في بقية الأسبوع على التصنيف، وحمل ذلك إلى الخزائن; واستخدم كاتبين لتبييض ما يؤلفه[1].

وتجدر الإشارة إلى أن بداية القرن السادس الهجرى وتحديداً العام 501هـ شهد خلافاً بين فقهاء السنة على اختلاف نزعاتهم العقدية حول القرآن، هل هو محدث أو قديم ؟ وتفاقم الأمر للدرجة التى وصل بها للوزير السنى الأفضل بن بدر الجمالى، فأمر بإنشاء سجل بالتحذير من الخوض فى ذلك، وركب بنفسه إلى الجامع بمصر، وجلس فى المحراب بجوار المنبر، وصعد الخطيب أربع درجات منه وقرأ السجل على الناس[2].

وهذه الواقعة تؤكد حقيقة النشاط الفكرى وتلاقح الأفكار بين من ادعى أن القرآن محدث من أهل السنة الذين تابعوا المعتزلة، وبين من قال إنه قديم ممن اتبع أحمد بن حنبل. كما تؤكد حرص هذا الوزير السنى على قطع كل ما من شأنه أن يعكر على المسلمين صفو معتقدهم.

وتجدر الإشارة إلى أن الحركة العلمية لم تكن قاصرة على رجال أهل السنة فحسب إنما شارك فيها النساء أيضاً فنسمع من الحافظ السلفى عن ترفة بنت أحمد بن إبراهيم الرازي التى يروى من طريقها حديثاً عن النبى ثم يذكر قراءته عليها بقوله: " ترفة هذه من بيت العلم وهي في نفسها كانت دينة كثيرة المعروف وتسمى أيضا عائشة وتدعى ترفة رحمها الله قرأنا عليها سنة أربع وثلاثين "[3]. كما نعرف من السلفى أيضاً أن من النساء من كن شاعرات بالإسكندرية وروى هو عن إحداهن الشعر وعبر عن اهتمامه بشعرها بقوله: " أنشدتني تقية بنت غيث بن علي الأرمنازي الصوري المدعوة ست النعم بالثغر ولم ترعين شاعرة قط سواها"[4].

ولابد مما ليس منه بد أن نذكر أن جهود أهل السنة، لم تتوقف على العمل الفردى، بل نجحت منذ النصف الأول للقرن الخامس الهجرى فى لملمة شتاتها، وتوظيفه فى إطار مؤسسات

---

[1] أنظر: اتعاظ الحنفا، 3/ 94،95.

[2] المقريزى: إتعاظ، 3/ 41.

[3] أنظر: معجم السفر، ص65.

[4] أنظر: معجم السفر، ص65.

تعليمية دعمها بعض الوزراء السنة وحكام الأقاليم، ولعبت دوراً مهماً فى إثراء الحركة الفكرية والتعليمية، ومن هذه المؤسسات:

أولا: جامع العطارين: كان جامع العطارين منذ أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالي سنة 477هـ. معهد علم وينبوع ثقافة، وقد ظل يؤدي رسالته طول عصر الحروب الصليبية، ويساهم مساهمة جدية في نشر العرفان، وقد تنوعت الدراسات في جامع العطارين; فهذا عمرو بن عيسى السوسي (ت498هـ)نحوي أخذ عنه النحو أكثر أهل الإسكندرية; وكان يقرأ لهم فيه كتاب سيبويه، وهذا عبد الرحمن ابن أبي بكر بن خلف شيخ الإسكندرية الذي انتهت إليه رياسة الإقراء فيها، ونبغ حتى قال فيه سليمان بن عبد العزيز الأندلسي: ما رأيت أحداً أعلم بالقراءات منه، لا بالمشرق ولا بالمغرب. وهذا محمد بن أحمد بن الخطاب (ت 525هـ) شيخ الإسكندرية في الحديث.

ثانيا: دار ومدرسة الطرطوشى[1]: كان الطرطوشي قد تزوج من سيدة موسرة صالحة من نساء الإسكندرية، فأطلقت يده في أموالها ووهبته دارًا من أملاكها، فقرر الطرطوشي بعد ازدحام الطلبة على دروسه أن يجعل تلك الدار مدرسة علمية على طراز المدارس النظامية التي رآها في بغداد أثناء رحلته، والتحق بتلك المدرسة الكثير من طلبة العلم، وكان الطرطوشي ينفق على تلاميذه ويضيف الغرباء منهم فيها، وكان يصطحب الطلبة ويخرج معهم في رحلات خلوية إلى البساتين والمتنزهات خارج المدينة وهناك يقضون عدة أيام، ويلقي دروسه في الهواء الطلق على تلاميذه ويذاكرهم فيما حفظوه ودرسوه، وقد أعجبت هذه الطريقة تلاميذه، حتى كان يخرج معه في رحلاته تلك ثلاثمائة وستين رجلاً على قول ابن فرحون [2].

وقد أشار ابن فرحون إلى مدرسة الطرطوشى صراحة بقوله: " تزوج بالإسكندرية امرأة موسرة حسنت حاله بها ووهبت له دار لها سرية وصير موضع سكناه معها علوها وأباح قاعتها وسفلها للطلبة فجعلها مدرسة ولازم التدريس. وتفقه عنده جماعة من الإسكندرانيين"[3].

---

(1) أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص592.

(2) ابن فرحون:الديباج المذهب، 2/245،246.

(3) نفسه، 1/276.

ثالثاً: المدرسة الحافظية أو العوفية: أقيمت في عهد الحافظ الفاطمي (524 - 544 هـ)، والتي أسسها الوزير رضوان بن ولخشي (ت 542 هـ) للفقيه المالكى أبى الطاهر بن عوف الزهرى (ت 581هـ) الذى ينتهى نسبة إلى الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف الصحابى الجليل، وذلك لتعليم العلوم الشرعية[1].

ويحفظ لنا القلقشندي نسخة سجل بتولية مدرس هذه المدرسة، وقد تكفل فيه الوزير برزق طلبة المدرسة وأستاذها الذي سيشرف على هذا الإنفاق. وفي هذا السجل يتحدث عن السبب الذي دعا إلى بناء مدرسة بثغر الإسكندرية فيقول: (ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الإسكندرية - حماة الله تعالى - على غيره من الثغور، فإنه خليق بعناية تامة..... لأنه من أوقى الحصون والمعاقل، والحديث عن فضله وخطير محله لا تهمة فيه للراوي والناقل، وهو يشتمل على القراء والفقهاء، والمرابطين والصلحاء، وأن طالبي العلم من أهله ومن الواردين إليه، والطارئين عليه، مشتتو الشمل متفرقوا الجمع - أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين، ولم يرض لهم أن يبقوا مذبذبين متبددين، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية)[2].

ويوضح لنا ابن فرحون مكانة ابن عوف ونشاطه العلمى وأثره فى الحركة العلمية بقوله: " كان ابن عوف رحمه الله تعالى إمام عصره وفريد دهره في الفقه على مذهب مالك رحمه الله وعليه مدار الفتوى وجمع إلى ذلك الورع والزهد وكثرة العبادة والتواضع التام ونزاهة النفس "[3].

وقد ذكره الحافظ أبو المظفر منصور بن سليم فقال:"كان من العلماء الأعلام ومشايخ الإسلام ظاهر الورع والتقوى، كتب عنه الحافظ السلفي وروى عنه الحافظ شرف الدين بن المقدسي، وبيت ابن عوف بثغر الإسكندرية بيت كبير شهير بالعلم، كان فيه جماعة من الفقهاء قال الشيخ شهاب الدين بن هلال سمعت أنه اجتمع منهم سبعة في وقت واحد، وكانوا إذا دخلوا على الإمام أبي علي سند بن عنان مؤلف كتاب الطراز يقول أهلا بالفقهاء السبعة

(1) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 167/3 ; وانظر: أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص200-202.
(2) أنظر: صبح الأعشى، 485/10.
(3) أنظر: الديباج المذهب، 95/2.

تشبيها لهم بالفقهاء السبعة أئمة المدينة النبوية... وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظم ابن عوف ويراسله ويستفتيه وقيل إنه كان السبب في تجديد الصادر بثغر الإسكندرية وهو شيء وظفه السلطان على تجار النصارى إذا صدروا من الإسكندرية زائدا على العشر، رتبه لفقهاء الثغر – دنانير تصرف في كل شهر –، وجعل له ناظرا وشهودا أوقعه عليهم وعلى ذريتهم، وكان الشيخ أبو الطاهر بن عوف ربيب الإمام أبي بكر الطرطوشي وقيل إن خالته كانت تحت الطرطوشي، وعليه تفقه، وبه انتفع في علوم شتى "[1].

ويوضح ابن هلال أهمية مصنفات العوفى بقوله: "رأيت له مجلدا في الرد على المتنصر وهو رجل يدعي العلم وليس من أهله، صنف كتابا سماه الفاضح واعتقد أنه نقض به الشريعة المحمدية وادعى فيها تناقضاً في الأحكام، وكان جاهلاً مصحفاً فمما صحف قوله ﷺ تمرة طيبة وماء طهور بقوله خمرة طيبة وقال انظر كيف يقول خمرة طيبة وهو يحرم شرب الخمر، وصنف الإمام الرازي ردا سماه قطع لسان البائح، وللشيخ أبي الطاهر تذكرة التفكير في أصول الدين وغير ذلك من التآليف وانتفع به الناس وعمر..."[2].

رابعاً: المدرسة العادلية أوالسلفية: مدرسة الحديث ومحدثها الكبير الشيخ الحافظ السلفى (ت 576هـ)[3]. أسسها العادل بن السلا الوزير الفاطمي السنى سنة 546هـ (1151م) للشافعية، وأسند إدارتها إلى السلفي وقد عمرت هذه المدرسة، وكانت تعرف بالمدرسة السلفية حتى بعد وفاة شيخها، وفيها تخرج كثير من العلماء الممتازين ولم يكن للشافعية مدرسة غيرها[4].

كان لإنشاء هذه المدرسة فرحة كبيرة بالإسكندرية بين أهل السنة عبر عنها الشعراء والوراقون، حتى أن أحدهم وكان شاعراً ووراقاً امتدح الحافظ السلفى على جهوده فى المدرسة بأكثر من خمسين قصيدة، وكذا امتدح بانيها الوزير السنى ابن السلار[5].

---

(1) نفس المصدر والمكان والصفحة.

(2) نقلا عن ابن فرحون: الديباج المذهب، ص96.

(3) ولقب (سلفى) بكسر السين ينسب لجده عن كلمة فارسية معناها "المشقوق الشفاه". أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، 107/1.

(4) محمد حمدى المناوى: الوزارة والوزراء، ص108.

(5) الشيال: أعلام الإسكندرية، ص140.

وفيما يخص الحافظ السلفى الذى عرفت المدرسة باسمه وأسست لأجله فقد ولد بأصفهان وفيها تلقى دروسه الأولى فى علم الحديث، وفى رحلة الحج التقى بعلماء الحديث وأخذ عنهم ورحل إلى همدان حيث التقى بالشيخيين "أبى حامد وأحمد الغزالى"وأخذ عنهما العلم.

عاش فى دمشق سنتان ثم انتقل إلى صور ثم إلى الإسكندرية فى عام 511 وكان عمره ستة وثلاثين سنة وتزوج من إحدى بنات الإسكندرية من أسرة موسرة اسمها (ست الأهل) وذكرها وأمها عائشة بقوله: "ترفة هذه من بيت العلم وهي في نفسها كانت دينة كثيرة المعروف وتسمى أيضا عائشة وتدعى ترفة رحمها الله قرأنا عليها سنة أربع وثلاثين وتوفيت بعدها بمدة قريبة رحمة الله عليها وكانت امرأة الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي موسى الخولاني الذي تزوجت أنا بعد موته بابنته ست الأهل المرأة الصالحة الدينة رحمها الله ورحمنا إذا صرنا إلى ما صارت إليه"[1].

واستوطن بالإسكندرية وجذب إليه طلاب العلم من كل أنحاء العلم الاسلامى وتتلمذ عليه الألوف من الطلاب، وغدا بعد سنوات شيخها الأول، حتى قيل: "والإسكندرية تبع لمصر، ما زال بها الحديث قليلاً حتى سكنها (السلفي) فصارت مرحولاً إليها في الحديث والقراءات[2].

ومن أجل تبليغ دعوته ونشر منهج أهل السنة، تجنب السلفي الاصطدام بالفاطميين، كما تجنب نقدهم والإساءة إليهم حتى لا يؤذوه كما آذوا غيره من علماء الإسكندرية، أو يمنعوه من التحديث كما منعوا غيره، إذ رأى أن تجنب الصدام سيعينه على نشر علوم أهل السنة التي حاربها الفاطميون، وفي تأدية رسالته، وهو ما عبر عنه الحافظ عبدالقادر الرهاوى بقوله: "وكان له عند ملوك مصر الجاه والكلمة النافذة، مع مخالفته لهم فى المذهب...، وكان... لا تبدو منه جفوة لأحد "[3].

---

[1] أنظر: معجم السفر، ص65.

[2] السخاوى: الإعلان بالتوبيخ، ص173 ; وانظر: الصلاّبي: صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1429هـ، 2008م، ص311.

[3] نقلا عن: الذهبى: سير أعلام النبلاء، 21/23،24.

ومما ساعد الحافظ السلفي في نجاحه في تأدية رسالته أن الدولة الفاطمية في تلك الفترة في (511هـ - 567هـ) قد أخذ نجمُها ينحدر نحو الأفول والزوال، وأن الخلفاء أنفسهم كانوا ضِعافاً مسلوبي الإرادة والإدارة، يتحكم في أمورهم ومصائرهم الوزراء المتصارعون على كرسي الحكم ومركز القوة والسلطان، ولم يكن أولئك الوزراء حريصين على رعاية المذهب الفاطمي والمحافظة عليه بقدر ما كانوا حريصين على السيطرة والبقاء في سدة الحكم، وكانت صلة السلفى بولاة الإسكندرية السنيّين وغيرهم حسنة طيبة، فكانوا يحبونه ويجلّونه، ويعرفون له قدره، ويحضرون دروسه، ويقرأون عليه[1].

حرص الحافظ السلفى على تعليم الناس العلوم الشرعية، وتقويم ما يقع منهم من المنكر والبدعة، وهو ما عبر عنه أحد من رآه من الفقهاء بقوله: "كان السلفي آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، حتى إنه قد أزال من جواره منكرات كثيرة. ورأيته يوما، وقد جاء جماعة من المقرئين بالألحان، فأرادوا أن يقرءوا فمنعهم من ذلك، وقال: هذه القراءة بدعة، بل اقرءوا ترتيلاً، فقرءوا كما أمرهم"[2].

وقد انشغل الحافظ السلفى بالحديث وعلومه، فصنف عدة مصنفات فى الحديث، وفى الرجال منها:

1- المنتخَب من كتاب الإرشاد في معرفة علماء البلاد للخليلي[3]، وهو برواية الإمام شرف الدين أبي الحسين علي بن المفضل بن علي بن المفرَّج المقدسي عن السِّلَفي، وسمع السِّلَفي هذا الكتاب من القاضي أبي الفتح إسماعيل بن عبد الجبار بن محمد المالكي، بقراءته عليه من أصله العتيق بقزوين سنة (501هـ) عن أبي يَعلَى الخَلِيليّ.

2- مشيخة أبي عبد الله الرازي[4]، وهي ثبت لشيوخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي المعروف بابن الحطّاب (ت525هـ) ومسموعاته منهم، انتقاها له الحافظ

---

(1) الذهبى: نفس المصدر السابق والمكان والصفحة ; وانظر: الصلاّبي: صلاح الدين الأيوبي، ص316.

(2) نقلا عن: الذهبى: سير أعلام النبلاء، 26/21.

(3) طبع بمكتبة الرشد بالرياض عام 1409هـ/1989م، بتحقيق الدكتور محمد سعيد عمر إدريس.

(4) طبع أولاً بتحقيق جورج فايدا، ونشرته صحيفة المعهد الفرنسي بدمشق، المجلد 23، سنة 1970م، (ص21-28) بتحقيق حاتم بن عارف العوني، وطبعته دار الهجرة، بالثقبة، سنة 1415هـ.

السِّلَفي وخرّجها سنة (512هـ)، وهي تحتوي على ستة وأربعين شيخًا في الحديث والقراءة، والتجويد، وأكثرهم من الشيوخ المصريين.

3- جزء فيه عن جماعة من الشيوخ (جملة من شيوخ السِّلَفي)، له نسخة في الزيتونة برقم 137 [4 (5032)].

4- فوائد أبي محمد الخَلاَّل، عبارة عن الأحاديث والآثار والأشعار التي انتقاها السِّلَفي من مرويات أبي محمد الحسن بن أبي طالب البغدادي عن شيوخه. لها نسخة في المكتبة المركزية بالجامعة الإسلامية، تحت رقم 536 (152/أ-156/أ) مصورة عن النسخة الظاهرية.

5- فوائد أبي سعيد البغدادي عن شيوخه، فيها أحاديث وحكايات، لها نسخة في الظاهرية برقم (3804/68).

6- ترجمة حياة أبي المظفر محمد بن أحمد بن محمد الأَبِيْوَرْديّ[1].

7- ترجمة أبي نعيم الأصبهاني، قال تلميذ السِّلَفي ابن المفضَّل: "قد جمع شيخنا أخبار أبي نعيم، وذكر من حدثّه عنه وهم نحو ثمانين رجلاً"[2].

8- أخبار أبي العلاء المَعَرّي، وهي ترجمة لحياة أبي العلاء المَعَرّي، وذكر لبعض أشعاره.

9- الفهرست، قال ابن خير: "وفهرست الشيخ الحافظ أبي الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد السِّلَفي الأصبهاني، روايتي لها من غير واحد من أصحابه عنه، وعنه أيضًا إجازة كتب بها إليَّ من الإسكندرية بخط يده لي ولجماعة من أصحابنا رضي الله عنهم"[3].

10- المعجم المؤرخ. قال أبو طاهر السلفي "فإني لما فرغت من ذكر من لقيته من الرواة وكبار الحفاظ والوعاة وإثبات من علقت عنه شيئا من الحديث وإن لم يكن عارفا بقوانين الرواية والتحديث وتسمية من استفدت منه فائدة فقهية أو أدبية أو زهدية أو استنشدته وأنشدني شيئا من شعره وبنات فكره أو مما أنشده من شاهده من أديب بارع

---

[1] السبكى: طبقات الشافعية، 6/83.

[2] الذهبى: تذكرة الحفاظ، 3/1093.

[3] أنظر: الفهرست، ص430.

أو راوية جامع ودونت ذلك كله في كتاب ترجمته بـ (المعجم المؤرخ) إذ بينت فيه درجاتهم وعينت على ضعفائهم وثقاتهم وأتيت على ما يحتاج إليه من أقوالهم ونبهت على رتبهم ومحالهم ولم أورد عن أحد منهم غير حديث واحد لا أكثر أو حكاية أو مقطوع من الشعر وإن كان غير قائله منه أشعر آثرت أن أضيف إليه أيضا من كاتبني من البلاد النائية التي لم أدخلها ولم أرها قط ولم أطرقها أو المدائن التي قد دخلتها لكن بعد وفاة المجيز ولم يتفق به الالتقاء كما جرى به القدر والقضاء"[1].

11- معجم الشعراء.

12- معجم مشيخة أصبهان، قال الذهبى: وله معجم ضخم لمشيخة أصبهان، في مجلد يكون أزيد من ستمائة شيخ"[2].

13- معجم النساء الأصبهانيات. ذكره المنذري في "جزء فيه حديث المتبايعين بالخيار والكلام على رواته رضوان الله عليهم".

14- معجم شيوخ بغداد (مخطوط) وهو كتاب عظيم النفع والقدر، مشحون بالفوائد، ألّفه السِّلَفي حين مُقامِه ببغداد ما بين سنة 493-497هـ، ضمّنه شيوخَه الذين سمع منهم ببغداد من أهلها والواردين عليها، فذكر أسماءهم، ونهض بأنسابهم، مع ذكر سني وفياتهم، وأحيانًا ذكر تواريخ ولادتهم، ثم أورد بعض ما روى عنهم، أو اختار من كتبهم من الأحاديث، والأخبار والحكايات، والأشعار وغير ذلك من الحكم المفيدة، وللكتاب ثلاث نُسَخ خطّية:

الأولى: في مكتبة "الأسكوريال" في مدريد تحت رقم (1783)، وعدد أوراقها 347 لوحة، ومكتوبة بخط نسخ رديء، تتكوّن من خمسة وثلاثين جزءًا.

والثانية: نسخة مكتبة فيض الله أفندي بتركيا تحت رقم (532)، ولها صورة في المكتبة المركزية في الجامعة الإسلامية تحت رقم (536)، وعدد أوراقها 72 ورقة، وهي نسخة ناقصة، الموجود منها الأجزاء (3-7)، مكتوبة بخط نسخ معتاد واضح، والناسخ أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر بن إبراهيم الحاسب، عرف بابن رَوَاج.

---

[1] أنظر: الوجيز، طبعة البلوشي، ص 31.

[2] أنظر: تذكرة الحفاظ، دارة المعارف النظامية الكائنة فى الهند، حيدرآباد الدين، ط1، 1334هـ، 4/1299.

والثالثة: نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، وهي نسخة ناقصة، الموجود منها الجزء الحادي عشر، والثاني عشر من الكتاب، لها صورة منها بالجامعة تحت رقم (955).

15- مختصر تاريخ بخارى للحافظ غنجار أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد البخاري (ت412هـ/1021م)[1].

16- 16-انتخاب تاريخ طرابلس، لأبي الحسن علي بن عبد الله بن محبوب الطرابلسي (ت521هـ/1127م)، قال السِّلَفي في ترجمته: "وصنف لطرابلس توريخًا وقفت عليه، وانتخبت منه ما استغربته، وحدّثني به"[2].

17- معجم السفر. ترجم فيه لمئات من أعلام عصره، ممن تتلمذ عليهم، أو تتلمذوا على يديه، وهو كتاب حافل صور فيه السلفى الحركة العلمية في عصره أحسن تصوير، وعرض للكثيرين من أهل السنة رجالاً ونساءً فقهاءً وشعراءً وزراءً وقضاة، وهو ما دعانا لأن نطرح على بعض طلبة الدراسات العليا دراسة أهل السنة فى مصر الفاطمية من واقع هذا الكتاب لما فيه من درر ونفائس.

وتجدر الإشارة إلى أن السلفي لم يقتصر في معجمه على تراجم الرجال من فقهاء ومحدثين وشعراء وحكام وأمراء وقضاة ممن عاصرهم في الإسكندرية، وإنما تناول بعض نساء المدينة ممن شاركن في الحركة العلمية، واشتغلن بالعلم والأدب، وأخذ عنهن أو أخذن عنه، فيتحدث عن عائشة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى فيقول: " عائشة هذه مُحدّثة، وابنة محدّث، وأخت محدث، وكانت صالحة، قرأنا عليها سنة 534هـ"، ويترجم لأختها خديجة، وكانت محدثة أيضا، فيقول: " خديجة هذه أبوها محدّث، وأخوها محدّث، وقد حدثت أختها، كما حدثت هي، ومن شيوخها ابن عبد الولي، وابن الدليل، وأبوها، وقد قرأنا عليها عن هؤلاء كلهم، وأما أختها ترفة فلم نجد لها سماعاً إلا عن أبيها فقط، وتوفيت خديجة فى شهر ربيع الآخر سنة ست وعشرين وخمسمائة، وهي بكر لم تتزوج قط، ووصت بأن أصلى عليها رحمها الله ورضى عنها "[3]، وقد ذكرنا زوجته وأمها، وشاعرة أخرى بالدراسة مما يؤكد على دور المرأة فى الحركة العلمية، والتى حرص السلفى على إبرازها.

---

[1] ابن حجر: المعجم المفهرس، رقم 725.

[2] أنظر: معجم السفر، ص259.

[3] أنظر: معجم السفر، ص83.

على أية حال أدّت المدرسة السِلفية دورها على خير ما يرام، فقد جعل منها السِلفي مركز إشعاع لإعادة أهل مصر إلى عقيدة أهل السنة التي حاول الفاطميون طمسها، "وقد تجلى تأثيرها واضحاً في أهل الإسكندرية بالذات من موقفين واضحين:

أوّلهما: يوم خرجوا مع واليهم ابن السلارالسنى الشافعى المذهب للاستيلاء على الوزارة في القاهرة[1].

وثانيهما: يوم وقفوا يحاربون مع صلاح الدين ويناصرونه ضد الوزير الفاطمي شاور، وحُلفائه الصليبيين، فلم يخذلوه أو يتخلّوا عنه رغم الحصار الشديد الذي فُرض عليهم ثلاثة شهور، بل حاربوا معه جنباً إلى جنب وبذلوا له كل ما يملكون من قوة ومال ورجال، إلى أن فكّ شاور والصليبيون الحصار، وقد احتفظ صلاح الدين الأيوبي لأهل الإسكندرية بهذا الجميل، فلما أزال الدولة الفاطمية وأقام على أنقاضها دولته الأيوبية، أولى الإسكندرية اهتماماً خاصاً ورعاية كبيرة.."[2].

وتجدر الإشارة إلى أن المدرستين العوفية المالكية والسلفية الشافعية، ومن قبلهما دار ومدرسة الطرطوشى كانت لها تأثيرات مهمة وخطيرة على الحياة العلمية والدينية بالإسكندرية خاصة وبمصر عامة **منها:**

أولاً: لملمة شتات أهل السنة على اختلاف مذاهبهم وأفكارهم، فى إطار تجمع وحدوى ضد المذهب الشيعى.

ثانياً: ازدهار العلوم والمعارف لا سيما العلوم الشرعية على المذهب السنى[3].

ثالثاً: أصبحت الإسكندرية محط أنظار المغاربة والأندلسيين الذين يمموا وجوههم شطرها كى يحملوا العلم عن أئمتها من أهل السنة كالعوفى، والسلفى، وعبدالوهاب بن توهيب المالكى، وموسى بن على السخاوى، وعلى بن محمد بن عيسى الأزدى المعروف بابن قيصر[4]، وهو ما عبر عنه منشور أحد الخلفاء الفاطميين حيث جاء فيه: "ومعلوم أن ثغر

---

(1) الذهبى: سير أعلام النبلاء، 20/281،282.

(2) الصلابى: صلاح الدين الأيوبي، ص 312.

(3) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص534.

(4) رحاب السيد: حكام الأقاليم، ص343،344.

الإسكندرية حماه الله تعالى الثغر الرفيع المقدار الذي هو قرة العين للإسلام وقذى في عيون الكفار ومحله مما تتطامن له معاقل التوحيد وحصونه وهو مشتمل من الفقهاء والصلحاء والمرابطين وأهل الدين على من لم يزل يحفظه ويصونه وإليه تتناقل السفار وتتردد التجار وهو المقصود من الأقطار القصية النائية ومن البلاد القريبة الدانية.."[1].

رابعا: إدراك صلاح الدين الأيوبى وأسرته لدور المدارس فى نشر المذهب السنى، ومقاومة المشروع الشيعى، ومن ثم رأينا صلاح الدين فى العام 566هـ ينشىء العديدمن المدارس السنية ومنها المدرسة الناصرية التى خصصت للشافعية، واشتهرت باسم المدرسة الشريفية بمصر والفسطاط[2]، والمدرسة القمحية والتى جعلت لتدريس المذهب المالكى، وأوقف عليها صلاح الدين ضيعة بالفيوم تعرف بالجنوشية، فيتحصل منها قمح يوزع على المعلمين والطلاب[3]، كما أسس تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين الأيوبى المدرسة التقوية التى أوقفها على فقهاء الشافعية[4]، وأسس بالفيوم مدرستين جعل إحداهما للشافعية والثانية للمالكية، وأوقف عليهما ربع متحصلات الفيوم[5].

---

(1) القلقشندى: صبح الأعشى، 10/363.

(2) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 2/205.

(3) نفسه، 3/319.

(4) ابن الأثير: الكامل، 11/345.

(5) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 3/456.

obeikandl.com

obeikandl.com